

الاجتزاء بالفتحة عن الألف في القراءات القرآنية

أ.د. سيف الدين طه الفقراء

قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - جامعة مؤتة/الأردن

fugara@mutah.edu.jo

الملخص

يدرسُ هذا البحث مسألة الاجتزاء بالفتحة عن الألف في القراءات القرآنية، وهذه المسألة وصفها العلماء بأنها قليلة مقارنة مع الاجتزاء بالضممة عن الواو، أو الكسرة عن الياء، وحصرها بعض العلماء بضرورة الشعر، على خلاف الاجتزاء بالضممة عن الواو، والكسرة عن الياء، وهما مما شاعا في الاستعمال، وبرزا في القراءات، وفي الشعر بكثرة. وبحث الدراسة في مفهوم الاجتزاء، وتطور دراسته في الدرس اللغوي ومواقف العلماء منه، ثم عرضت مظاهر الاجتزاء بالفتحة عن الألف في القراءات القرآنية، وبيّنتُ آراء العلماء فيها، ومواقفهم منها، وحللت تفسيراتهم لها، ومدى ارتباط هذه الظاهرة بالتفاوت بين الصورة الإملائية والنطق الصوتي في بعض الألفاظ.

الكلمات المفتاحية: الاجتزاء، الاستغناء، الفتحة، القراءات.

Elision of *Alif* and Retention of *Fathah* in Quranic *Qira'at*

Abstract

This paper examines elision of *alif* and retention of *fathah* in Quranic *qira'at*, which some scholars justified as poetic license. Scholars believe that this issue is in the league of its own in comparison with the elisions of *kasrah* and *dammah* and retentions of *ya'* and *waw*, respectively, which permeate Quranic *qira'at* and poetry as well. In so doing, this paper explores and traces the concept of elision in linguistics

along with the scholars' views and attitudes towards it. Moreover, it tackles some aspects of eliding *alif* and retaining *fathah* in Quranic *qira'at*. Finally, this paper examines whether this issue is relevant to the discrepancy between orthography and the pronunciation of those terms.

Keywords: Elision, Replacement, *fathah*, *qira'at*.

مقدمة:

ظاهرة الاجتزاء من الظواهر اللغوية البارزة في اللغة، وكادت مسائلها تندثر في ثنايا ظاهرة الحذف، والاستغناء، والتعويض، على الرغم من الخصوصية التي تتسم بها هذه الظاهرة في مفهومها، ومظاهرها، فالاجتزاء في معناه اللغوي هو الاستغناء بالقليل عن الكثير، أي بالجزء عن الكل، وهذا المفهوم عبّر عنه العلماء بالتعويض حيناً، وبلاستغناء حيناً، وبالاكتفاء أحياناً، وهي مصطلحات كان لها من الدّيوغ والشّيوغ في الدّرس اللغوي ما استحقت معه دراسات مختصة، ورسائل جامعية، منها: كتاب زين الخويسكي (ظاهرة الاستغناء في قضايا النّحو والصرف)، ودراسة للسيد رزق الطويل عنوانها: (ظاهرة الاستغناء في الدّراسة اللغوية) نُشرت في مجلة كلية اللغة العربية بجامعة أمّ القُرى، في أربعين صفحة، وثمة دراسة لغازي طليمات، بعنوان: (الاستغناء في اللغة)، نُشرت في مجلة جامعة البعث، وجاءت في سبع وعشرين صفحة تقريباً، تناول فيها مسائل مختصرة من هذه الظاهرة، نحوياً وصرفياً. ويوجد رسالة ماجستير أعدت في الجامعة الأردنية حول (ظاهرة الاستغناء في النّحو العربي) لعبدالله بابعير، درس فيها الباحث بعض المسائل النّحوية في باب الاستغناء، غير أنّ الباحث صبأ فيها إلى الحذف النّحوي على حساب الاستغناء بمفهومه الاصطلاحي. وأعدت في جامعة مؤتة رسالة دكتوراه عن (ظاهرة الاستغناء في أبنية الجمع) عام 2014م، للدكتور باعث الحروب، ورسالة ماجستير أخرى عن (ظاهرة الاستغناء في الأبنية الفعلية) لبيان سحيمات عام 2015م.

هذه الدّراسات تتقاطع بشكل ضئيل مع الاجتزاء، والسبب يعود إلى توسّع العلماء في إطلاق مصطلح الاستغناء على الاجتزاء، وهو توسّع لا يخلو من اضطراب، لأنّ الاستغناء له مفهوم خاص به حدّده العلماء، ونصّوا عليه نصّاً صريحاً، وهو مفهوم يلتقي مع الاجتزاء في الحد اللغوي من حيث الدلالة على الاكتفاء بشيء عن آخر، ويتعارض معه في المفهوم الاصطلاحي، لأنّ الاستغناء كما عرّفه سيبويه إسقاطُ العرب للفظٍ من كلامهم الأصل فيه أن يُستعمل حتى يكون المُستغنى عنه مُسقطاً من كلامهم ألبتة، يقول: "اعلم أنّهم ممّا يحذفون

الكلم. وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوضون، ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يُستعمل حتى يصير ساقطاً⁽¹⁾.

وقد ميّز سيبويه الاستغناء عن الظواهر التي تتقاطع معه كالحذف والتعويض في قوله: (فمما حُذف وأصله في الكلام غير ذلك: لَمْ يَكْ، وَلَا أَذِرْ، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ. وَأَمَّا استغناؤهم بالشيء عن الشيء، فإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: يَدَعُ، وَلَا يَقُولُونَ: وَدَعِ، استغنوا عنها بتركها، وأشباها ذلك كثير، والعوض قولهم: زَنَادَقَهُ وَزَنَادِيقُ، وَقَرَأْنَتْهُ وَقَرَائِنُ، حذفوا الياء وعوضوا الهاء، وقولهم: أَسْطَاعَ يُسْطِيعُ، وَإِنَّمَا هِيَ أَطَاعَ يُطِيعُ، زادوا السين عوضاً من ذهاب حركة العين من أَفْعَلَ. وقولهم: أَلْلَهُمَّ، حذفوا يا، وألحقوا الميم عوضاً)⁽²⁾.

إنَّ أظهر الدراسات التي أبرزت ظاهرة الاجتزاء، وفصلت القول فيها هي دراسة هاني الفرنواني، وعنوانها (ظاهرة الاجتزاء في العربية)، نشرت عام 2005 م عن دار الوفاء في الإسكندرية. وجاءت الدراسة في ثلاثة فصول: الأول لحقيقة الاجتزاء وعَلَّتْه، وصلته بالخط العربي، والثاني لشواهد الاجتزاء، والثالث خصصه الباحث لموضوع الاجتزاء بين الأصالة والضرورة، وجاءت الدراسة في 200 صفحة، وهي أفضل دراسة تناولت موضوع الاجتزاء كظاهرة لغوية.

لم يحظ موضوع الاجتزاء بالفتحة عن الألف في القرآن الكريم في دراسة الفرنواني إلا بصفحتين (55 و56)، والقول نفسه في باب الاجتزاء بالفتحة عن الألف في القراءات؛ فقد حظي بأربع صفحات (77-80)، وهذه الصفحات قيّمة في عرض مسائل الاجتزاء بالفتحة، وتنسجم مع الإطار العام للكتاب، ولكنها لم تستوف الموضوع شواهد وتحليلاً، فجاءت هذه الدراسة استكمالاً لجهود العلماء في هذا الموضوع لا بديلة عنها.

لقد أبرزت دراستي هذه مفهوم الاجتزاء وحاولت تأصيله بما يميّزه عن الاكتفاء والاستغناء، وعن غيره من المصطلحات المرادفة له، وعرضت مواقف العلماء من هذه الظاهرة، واستعرضت كيف تطوّرت في التفكير النحويّ عند هؤلاء العلماء، واستقصيت مظاهر الاجتزاء بالفتحة عن الألف في القراءات القرآنية، بالارتكاز على مواطنها في تفسير البحر المحيط والدر المصون؛ لأنهما خير من توسّع في ذكرها والإحاطة بها.

أولاً- مفهوم الاجتزاء لغة واصطلاحاً:

الاجتزاء لغة: يعني الاكتفاء بالجزء، أي اكتفاء بقليل عن كثير، جاء في كتاب العين: "أجزائي الشيء، مهموز، أي: كفاني. وتجزأت بكذا، واجتزأت به، أي، اكتفيت به. وهذا الشيء بجزيء عن هذا، يُهمز ويُلين. وفي لغة: يَجْزَأ ... الجزء، مهموز: الاجتزاء أي: الاكتفاء، والجزوء أيضاً، تقول: جَزَيْتَ الإبل: إذا اكتفت بالرطب عن الماء جَزَأً وجزوءاً وجزوا غير مهموز" (3). "والجزء والجزء: البعض، والجمع أجزاء. سَيَوِيه: لَمْ يُكَسِّرِ الجزء عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ. وَجَزَأَ الشيءَ جَزْأً وَجَزَأَهُ كِلَاهُمَا: جَعَلَهُ أَجْزَاءً، وَكَذَلِكَ التَّجْزِئَةُ. وَجَزَأَ الْمَالَ بَيْنَهُمْ مُشَدِّدٌ لَا غَيْرَ: قَسَمَهُ. وَأَجْزَأَ مِنْهُ جُزْأً: أَخَذَهُ. وَالْجُزْءُ، فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: النَّصِيبُ، وَجَمْعُهُ أَجْزَاءٌ" (4).

واستعمل الاجتزاء بمعنى الاكتفاء أو الاستغناء بشيء عن شيء "وَمِنْهُ قَوْلُ النَّاسِ: اجْتَزَأْتُ بِكَذَا وَكَذَا، وَتَجَزَّأْتُ بِهِ: بِمَعْنَى اكْتَفَيْتُ، وَأَجْزَأْتُ بِهِذَا الْمَعْنَى، وَفِي الْحَدِيثِ: لَيْسَ شَيْءٌ يُجْزِئُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا اللَّبَنُ، أَيْ لَيْسَ يَكْفِي. وَجَزَيْتَ الْإِبِلَ: إِذَا اكْتَفَتْ بِالرُّطْبِ عَنِ الْمَاءِ. وَجَزَأَتْ تَجْزَأُ جَزْأً وَجُزْأً بِالضَّمِّ وَجُزْوءاً أَيْ اكْتَفَتْ، وَالْإِسْمُ الْجُزْءُ. وَأَجْزَأَهَا هُوَ وَجَزَّأَهَا تَجْزِئَةً وَأَجْزَأَ الْقَوْمُ: جَزَيْتَ إِبِلَهُمْ. وَظَبِيئَةٌ جَارِيَةٌ: اسْتَفْتَتْ بِالرُّطْبِ عَنِ الْمَاءِ. وَالْجَوَازِيُّ: الْوَحْشُ، لِتَجْزِئَهَا بِالرُّطْبِ عَنِ الْمَاءِ" (5). وثمة معانٍ لغوية أخرى للاجتزاء لا تعيننا في هذا البحث توسعت المعجمات في ذكرها، والمعنى الذي يتصل بموضوع الدراسة هو أن الجزء يعني البعض والقطعة، والاجتزاء: الاكتفاء، والاستغناء بالقليل عن الكثير (6).

وقد فرق أبو هلال العسكري بين الاجتزاء والاكتفاء بقوله: "الفرق بين قولك اجتزأ به، وقولك اكتفى به: أن قولك اجتزأ يقتضي أنه دون ما يحتاج إليه، وأصله من الجزء وهو اجتزاء الإبل بالرطب عن الماء، وهي وإن اجتزأت به يقتضي أنه دون ما تحتاج إليه عنه فهي محتاجة إليه بعض الحاجة، والاكتفاء يفيد أن ما يكتفي به قدر الحاجة من غير زيادة ولا نقصان، تقول: فلان في كفاية، أي فيما هو فوق حاجته من العيش" (7).

أما في الاصطلاح فلم يحظ مصطلح الاجتزاء بتعريف مفهومه في كتب الاصطلاحات مثل كتاب التعريفات للشريف الجرجاني (ت 816هـ)، ومعجم الكليات للكفوي (ت 1094هـ)، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي (ت 1158هـ تقريباً) (8). غير أننا نجد المصطلح يدور في فلك أنواع الحذف في البلاغة، ومنها: الاقتطاع، والاختزال؛ فالأقتطاع يعني: "حذف بعض حروف الكلمة، أو ما هو بمثابة الكلمة الواحدة، تخفيفاً على مخارج الحروف، أو لداعي السرعة، أو

لأجل القافية في الشَّعر، أو الفاصلة في النثر، أو التحبُّب في النداء، أو نحو ذلك من دواعي بلاغية⁽⁹⁾، ومن أمثلة اقتطاع الحرف والاجتزاء بحركته قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَسِرُّ﴾ (الفجر: 4) وقوله: ﴿وَتُمَوِّدُ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ (الفجر: 9)، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ (القمر: 18)، وعدوا حذف حرف من اللفظ من أنواع الاختزال أيضاً⁽¹⁰⁾. وتوسَّع العلماء في باب الحذف ومظاهره بما يغني عن الإعادة هنا⁽¹¹⁾، ولابن جني وقفة مطوَّلة مع حذف الحرف، سنأتي على بعضها لاحقاً، ولكن أودَّ أن أشير هنا إلى أنَّه استعمل مصطلح الخرم فيما استعمله من مصطلحات في هذه المسألة، يقول: "وإذا كان الحرف لا يتحمل بنفسه حتى يدعو إلى اخترامه وحذفه كان بأن يضعف عن تحمُّل الحركة الزائدة عليه فيه أخرى وأحجى، وذلك نحو قول الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَسِرُّ﴾ (الفجر: 4) و﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ (الكهف: 64) و﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (الرعد: 9)"⁽¹²⁾.

لم يبتعد المحدثون عن القدماء في إهمال تعريف مفهوم الاجتزاء، فلم يرد له ذكر عند عزيزة بابي في كتابها (المعجم المفصل في النحو العربي)، ولا عند سمير اللبدي في كتابه (معجم المصطلحات النحويّة والصرفيّة)، والقول نفسه مع محمد إبراهيم عبادة في (معجم مصطلحات النحو والصرف والعروض والقافية)، وكذلك مجدي وهبه وكامل المهندس في كتابهما (معجم المصطلحات العربيّة).

وقال هاني الفرناوي في تعريف الاجتزاء: "الاجتزاء ظاهرة لها ما يناظرها، إذ ترتبط بظاهرة الحذف في العربيّة وهي كثيرة جداً، فالعرب يقولون: لا أدري بدل لا أدري، ولم أبالي بدل لا أبالي، ولم يك بدل لم يكن، ويختصرون (سوف أفعل) إلى (سأفعل)، على مذهب الكوفيين، بدليل قولهم: سف أفعل بالاختصار على حذف الواو، وسو أفعل بالاختصار على حذف الفاء، فليس الحذف قاصراً على حرف المدّ، وإن كان لحرف المدّ النصيب الأوفى"⁽¹³⁾.

لقد استعمل العلماء مصطلح الاجتزاء بشكل واسع، ولا يكاد كتاب يخلو منه، وجاء المصطلح ضمن منظومة مصطلحات تتّصل بالحذف، كالإقتطاع، والاختزال، والاستغناء، والاكتفاء، غير أنّ الذي يميّز الاجتزاء عن نظائره؛ أنّه يكون استغناءً بالقليل عن الكثير، وهو يعني في الصّرف الاستغناء بالحركة عن الحرف، وقد يعني في النّحو الاستغناء بالحرف عن الكلمة، والموضوع الأخير حظي ببحث جيّد لإبراهيم محمد عبدالله عنوانه (الاجتزاء ببعض الكلمة)⁽¹⁴⁾.

إنّ بعض مظاهر الاجتزاء نجدّها مدرجة عند العلماء ضمن باب الاستغناء، لأنّ الاجتزاء مظهر من مظاهر الاستغناء غير أنّه استغناء بالقليل عن الكثير، أمّا الاستغناء فقد حدّه سيبويه بقوله: "اعلم أنّهم ممّا يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوّضون، ويستغنون بالشّيء عن الشّيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطاً" (15)، لقد ترادف الاستغناء والاجتزاء في اصطلاح العلماء، لأنهم أدخلوا الاجتزاء في فلك الاستغناء، علماً أنّ الاستغناء له ضوابط تخالف الاجتزاء، فهذا سيبويه يقول: "ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ (آل عمران: 180)، كأنّه قال: ولا يحسبنّ الذين يبخلون البخل هو خيراً لهم. ولم يذكر البخل اجتزاء بعلم المخاطب بأنّه البخل، لذكره يبخلون فاستعمل الاجتزاء بمعنى الحذف. ومثل ذلك قول العرب: "من كذب كان شراً له"، يريد كان الكذب شراً له، إلا أنّه استغنى بأن المخاطب قد علم أنّه الكذب، لقوله كذب في أول حديثه" (16).

إنّ المسافة بين الاجتزاء والاستغناء في المفهوم شاسعة، فالاجتزاء مسألة جوازية يجوز فيه لمنتج اللغة الاجتزاء بالحركة عن الحرف، أو بالحرف عن الكلمة، أي هو اكتفاء بقليل عن كثير لدليل عليه، أمّا الاستغناء كما عرفه سيبويه وأخذ بتعريفه ابن جني والسيوطي وغيرهم من العلماء من بعده، فهو استغناء بالشّيء عن الشّيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير المستغنى عنه ساقطاً من كلامهم البتة. فإذا جاز لنا أن نقول: لا أدري أو لا أدري في الاجتزاء، فإنّه لا يجوز لنا أن نجمع رجل على غير أرجل؛ لاستغنائهم بجمع الفلّة عن الكثرة. فالأول اختياري، والثاني وجوبي.

إنّنا لا نعدم استعمال الاجتزاء مصطلحاً يقابل الاستغناء والاكتفاء، دون مراعاة لضابط الفلّة فيه، يقول الطبري: "وقوله: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (الطور: 14) يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: يُقَالُ لَهُمْ: هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ فِيهَا فِي الدُّنْيَا تُكَذِّبُونَ، فَتَجْعَدُونَ أَنْ تَرُدُّوَهَا، وَتَصْلَوْهَا، أَوْ يُعَاقِبُكُمْ فِيهَا رَبُّكُمْ وَتَرَكْ ذِكْرُ يُقَالُ لَهُمْ، اجْتِزَاءً بِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ" (17). ولا أستبعد أن يكون مصطلح الاجتزاء انتقل إلى النحو من علم أصول الدين والفقه، فثمّة أبواب تحمل اسم الاجتزاء في كتب الفقه والحديث، كالاجتزاء بثلاثة أحجار في الاستطابة، والاجتزاء بالحجار مع وجود الماء، والاجتزاء بأذان واحد لأكثر من صلاة، والاجتزاء بالغسل، واجتزاء المرء بأذان غيره في الحضر، وغير ذلك (18).

ثانياً- موقف العلماء من الاجتزاء بالحركة عن الحرف.

تطالعنا مسألة الاجتزاء ظاهرة في مرحلة مبكرة في الدرس اللغوي، وإن عبّروا عنها بمصطلحات متعدّدة بسبب عدم استقرار المصطلح اللغوي في المرحلة الأولى من نشأة علم النحو، فالخليل يعدّ هذه الظاهرة سمة من سمات لغة العرب، يقول: "والعرب ربّما حدّثوا الياء من قولهم: لا أدري في موضع لا أدري، يكتفون بالكسرة"⁽¹⁹⁾، والاكتفاء بمعنى الاجتزاء برز في موضع آخر عند الخليل في قوله: "ألا ترى الحكاية أنّ الحاكّي يحكي صلصلة اللجام فيقول صلّصل اللّجّام، وإن شاء قال: صلّ، يُخَفِّفُ مرّةً اكتفاءً بها، وإن شاء أعادها مرتين أو أكثر من ذلك فيقول: صل، صل، صل، يتكلّف من ذلك ما بدا له"⁽²⁰⁾.

لقد بدت مسألة الاجتزاء أظهر عند سيبويه، فقد استعمل الاجتزاء والاستغناء بمعنى واحد في موضع واحد. يقول: "ومن ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَا لَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾، كأنّه قال: ولا يحسبنّ الذين يبخلون البخل هو خيراً لهم. ولم يذكر البخل اجتزاء بعلم المخاطب بأنّه البخل، لذكره يبخلون، ومثل ذلك قول العرب: "مَنْ كَذَبَ كَانَ شَرّاً لَهُ"، يريد كان الكذب شراً له، إلا أنّه استغنى بأنّ المخاطب قد علم أنّه الكذب"⁽²¹⁾. وقد راح سيبويه بين الاكتفاء والاستغناء في التعبير عن هذه الظاهرة، واستعملهما بمعنى واحد في المسألة نفسها، يقول: "كأنّه قال: واعدتني مواعيد عرقوب أخاه، ولكنه ترك واعدتني استغناءً بما هو فيه من ذكر الخلف، واكتفاءً بعلم من يعي بما كان بينهما قبل ذلك"⁽²²⁾. غير أنّ الملمح الأبرز عند سيبويه هو شيوع ظاهرة الاستغناء عنده والتعبير عنها بصور مختلفة نحو: يستغنون، استغنوا، استغناء، وهذه المصطلحات شاعت في كتابه في تسعين موضعاً تقريباً.

إنّا لا نعدم تحفظاً من سيبويه على الاجتزاء بالحركة عن الحرف في باب الأفعال، وهذا ظاهر في قوله: "وسألت الخليل عن القاضي في النداء فقال: اختار: يا قاضي، لأنّه ليس بمنون، كما اختار هذا القاضي، وأمّا يونس فقال: يا قاضي. وقول يونس أقوى، لأنّه لما كان من كلامهم أن يحذفوا في غير النداء كانوا في النداء أجدر، وأمّا الأفعال فلا يحذف منها شيء، لأنّها لا تذهب في الوصل في حال، وذلك: لا أقضي، وهو يقضي، ويغزو ويرمي. إلا أنّهم قالوا: لا أدري، في الوقف؛ لأنّه كثير في كلامهم، فهو شاذّ. كما قالوا: لم يك، شُهِت النون بالياء حيث سكنت. ولا يقولون لم يك الرجل، لأنّها في موضع تحرك، فلم يُشَبَّه بلا أدري، فلا تحذف الياء إلا في: لا أدري،

وما أدر⁽²³⁾. لقد قصر سيبويه الاجتزاء بالحركة عن الحرف في باب الفواصل القرآنية والقوافي الشعرية، "وجميع ما لا يُحذف في الكلام، وما يختار فيه أن لا يحذف، يُحذف في الفواصل والقوافي، فالواصل قول الله عز وجل": ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَسُرُّ﴾ (الفجر: 4) ﴿مَا كُنَّا نَبْعُ﴾ (الكهف، آية: 64)، و﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (غافر، آية 32)، و﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (الرعد، آية 9). والأسماء أجدر أن تحذف؛ إذ كان الحذف فيها في غير الفواصل والقوافي، وأما القوافي فنحو قوله - وهو زهير:

وَأَرَاكَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَع ض الْقَوْمَ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرُ

وإثبات الياءات والواوَات أقيس الكلامين. وهذا جائز عربي كثير⁽²⁴⁾.

لقد استعمل الفراء (المتوفى 207هـ) مصطلح الاجتزاء بمفهومه الاصطلاحي، ولكنه لم يقصره على الاجتزاء بالقليل عن الكثير، يقول: "وقوله: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ﴾ (لقمان، آية: 34) وبآية أرض. فمن قال: بِأَيِّ أَرْضٍ، اجتزأ بتأنيث الأرض من أن يُظهِر في أي تأنيثاً آخر، ومن أنث قال: قد اجتزأوا بأي دون ما أضيف إليه"⁽²⁵⁾. وكان استعماله لمصطلح الاكتفاء بمعنى الاجتزاء أكثر، وجعل هذا الحذف من الأوجه الجائزة في اللغة، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاحْشَوْني﴾ (البقرة، آية: 150) "أثبتت فيها الياء ولم تثبت في غيرها، وكل ذلك صواب، وإنما استجازوا حذف الياء؛ لأن كسرة النون تدلّ عليها، وليست تهيب العرب حذف الياء من آخر الكلام إذا كان ما قبلها مكسوراً، من ذلك (رَبِّي أَكْرَمَنِي وَأَهَانَنِي فِي سُورَةِ الْفَجْرِ، وقوله: أَتَمِدُّونَنِي بِمَالٍ، ومن غير النون، المُنَادِ، والدَّاعِ، وهو كثير، يكتفي من الياء بكسرة ما قبلها، ومن الواو بضمّة ما قبلها مثل قوله: «سَنَدُعُ الرِّبَانِيَّةَ﴾ ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ﴾ وما أشبهه، وقد تسقط العرب الواو وهي واو جمع، اكتفى بالضمّة قبلها فقالوا في ضربوا: قد ضرب، وفي قالوا: قد قال ذلك، وهي في هوازن وعليها قيس... ويحذفون ياء التأنيث، وهي دليل على الأنتى اكتفاء بالكسرة"⁽²⁶⁾.

وهذا الاستعمال لمصطلح الاجتزاء يطالعنا محدوداً عند الأخفش (المتوفى 215هـ) في كتابه معاني القرآن، يقول: "﴿وقال: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ (النحل، آية: 49) يريد: من الدواب، واجتزأ بالواحد كما تقول: ما أتاني من رجلٍ، أي: ما أتاني من الرجال مثله"⁽²⁷⁾. ولم يقف الأخفش عند حذف الياء وتفسيرها في يسر، والداع، والتناد، وأهان، وغيرها من المواضع في القرآن الكريم، لأنّ منهجه في معاني القرآن يخالف منهج الفراء من حيث عدم التفصيل في المسائل اللغوية. ولم يتورّع الأخفش عن وصف هذه الظاهرة

في غير رؤوس الآي والقوافي بالقبح،، يقول: "فإذا كان شيء من هذا الدعاء حذفت منه الياء نحو ﴿يَا عِبَادِ، فَاتَّقُونِ﴾ (الزمر، آية: 16) و ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ (يوسف، آية: 110) و ﴿رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ﴾ (المؤمنون، آية: 93) ومن العرب من يحذف هذه الياءات في الدعاء وغيره من كل شيء. وذلك قبيحٌ قليلٌ إلا ما في رؤوس الآي، فإنه يُحذف للوقف، كما تحذف العرب في أشعارها من القوافي⁽²⁸⁾. وأكد موقفه من الحكم بالقبح على الاجتزاء في مواضع أخرى من كتابه⁽²⁹⁾.

إننا لا نوافق هاني الفرناوي في ما ذهب إليه من اضطراب الأخفش في موقفه من الاجتزاء⁽³⁰⁾؛ لأنَّ الأخفش اعتبره من القبيح في اللغة واختيار الكلام، ولكنه عدّه من الكثير في رؤوس الآي والقوافي، وهذا ينسجم مع موقف معظم العلماء من هذه المسألة الذين قالوا بقياسية الإثبات وجواز الحذف والاجتزاء في رؤوس الآي والقوافي، وإجازته على قلة في الاختيار.

وهذا الاستعمال لمصطلح الاجتزاء في توجيه القراءات نجده عند الزجاج (المتوفى 311هـ) يقول في توجيه قراءته قوله تعالى: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (الواقعة، آية: 47) ويجوز (إِنَّا)، فمن قرأ (إِنَّا) اجتزأ بألف الاستفهام⁽³¹⁾. ونجد الزجاج يقر الحذف والاجتزاء بالحركة ويصفه بالحسن؛ لأنه من رؤوس الآي، على النحو الذي ذهب إليه في توجيه قراءته ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (غافر، آية: 32) يقول: "وقرأ الحسن يوم التنادي - بإثبات الياء -، وأكثر القراءة التناد، وقرأ ابن عباس يوم التناد - بتشديد الدال، والأصل التنادي، وإثبات الياء الوجه، وحذفها حسن جميل؛ لأنَّ الكسرة تدلُّ على الياء، وهورأس آية، وأواخر هذه الآيات على الدال"⁽³²⁾. ونلمس أنَّ الزجاج يتحفّظ على الحذف في غير رؤوس الآي، فقد أطلّ في تفسير حذف الياء في قوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء، آية: 146) ونصَّ على أنَّ الياء حذفت في اللفظ والخط كما قال النحويون، وعلمه بالتقاء الساكنين، ومن نظائره (يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ) وكذلك (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) و (يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ) فالواو حذفت ههنا لالتقاء الساكنين، فأما قول الله عزَّ وجلَّ: (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ: (يُنَادِ الْمُنَادِ)). و (يدعُ الداع)، فهذه الياءات من نحو (نَبِغِ) حُذفت؛ لأنَّ الكسرة دلَّت على الياء فحُذفت الياء لثقلها، وليس الوجه عند النحويين حذفها⁽³³⁾.

ونلمس عند النحاس (المتوفى 338هـ)، موقفاً وتفسيرات لا تخلو من الاختلاف عما سبقوه في توجيه الاجتزاء بالحركة عن الحرف، ففي توجيه قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بِالْعَمَّةِ فَمَا تُغْنِ

النُّذْرُ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ (القمر، آية: 5، 6)، "فأما حذف الياء من (نُغن) في السَّواد فإنه على اللفظ في الإدراج، ومثله يوم يدع الداعي إلى شيء نكر، تكتب بغير واو على اللفظ في الإدراج. فأما الداعي إذا حذفت منه الياء؛ فالقول فيه أنه بُني على نكرته. فأما البين فإن يكون هذا كله مكتوباً بغير حذف" (34).

إنَّ هذا التداخل بين الاجتزاء والاكتفاء والاستغناء انتقل إلى أبي سعيد السيرافي (المتوفى 368هـ)، وهو يشرح كتاب سيبويه، فقد تجاوز عنده تعاقب مصطلحي الاستغناء والاكتفاء (80) ثمانين موضعاً⁽³⁵⁾، وفي مسألة الاجتزاء بالحركة عن الحرف ذكر السيرافي مسألة حذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة في الأسماء، وبين رأي الخليل الذي ذهب إلى إثبات الياء في قولهم: يا قاضي، وهو مذهب البصريين، وعرض موقف سيبويه الذي وافق رأي يونس في قولهم: يا قاضي. ووافق السيرافي سيبويه في أنَّ ذلك لا يُقاس في الأفعال، وإن كان يحذف منها الياء لكثرة الاستعمال شذوذاً، نحو: لا أدري، وفي الفواصل والقوافي، ولكنَّ القياس الإثبات⁽³⁶⁾.

ونجد أبا علي الفارسي المتوفى (377هـ) يقف مع مظاهر من هذا الاجتزاء ويعلله بعلة غريبة، فقد قال في البيتين اللذين رواها عن الكسائي، في قوله:

أبا واصلٍ فاكسُوهما حُلَّتِيهما ... فإنَّكما إن تَفْعَلَا فَتَيَانِ

بما قامتا إن تغلُواكم فَعَالِيَا ... وإن تُرَخِّصَا فهو الذي تُردان

وقوله: فهو الذي تُردان، وحذف حرف اللين منه، فإنَّ ذلك ليس بلحن، وذلك أنَّ هذه الحروف، وإن كانت أصولاً في الكلام، فهي تشبه الزيادة، ألا ترى أنَّ الواو التي هي لام الفعل في قوله: لا يسلو بمنزلة المدة التي في التعانيق والثُّجُل، والياء في منزلي، بمنزلة الياء في ينسلي، فيمن جعله ينفعل من سلا، والألف في نحو آدم، وآخر، بمنزلة الألف، في: ضارب، والألف في مُرامى، بمنزلة الألف في حبارى⁽³⁷⁾. فقد ربط الفارسي بين الحذف والزيادة في تعليل الاجتزاء، وهذه المسألة وقف عندها الفرنواني في كتابه⁽³⁸⁾.

ومكي بن أبي طالب القيسي (المتوفى: 437هـ) يأخذ بالاجتزاء وإن كان أميل إلى البناء في تفسير ما حمل على الاجتزاء، يقول: فمن قرأ ﴿ابنُ أُمٍّ﴾، بالفتح، فالتقدير عند الكسائي، والفراء، وأبي عبيد: يا ابن أمه، ثم حذف، وهو عند البصريين يبنى كـ "خَمْسَةَ عَشَرَ"، ومن

كسر " الميم " ، فقال أبو حاتم، والأخفش : حذف الياء لدلالة الكسرة عليها، وهي لغة لبعض العرب، يقولون: يا غُلامَ غُلامٍ أَقِيل، وحكى الأخفش : هذا غُلامٌ يا هذا، بغير ياء في غُلامي. وأحسن منه عند أهل النظر : أن يكون بناء الاسمين اسماً واحداً، ثم أضافه بعد ذلك⁽³⁹⁾. وفي موضع آخر نجد مكثراً يعرض الآراء ويقلل من مسألة الاعتداد بالاجتزاء "ومن قرأ ﴿يا بني اركب مَعَنَّا﴾ (هود، آية:42) بالفتح، فزعم أبو حاتم أنه أراد : يا بنيأه، فحذف الهاء، لأنه يصل، وحذف الألف لدلالة الفتحة، ولا يجوز عند سيبويه حذف الألف لخفتها، وليس مثل الواو، وقال الزّجاج : كان أصله " يا بني " بياءين كما تقول: يا غلامي بالياء، فأبدل من الكسرة فتحة، ومن الباء ألفاً، ثم حذف الألف لسكونها، وسكون الراء بعدها من " اركب "، وكتبت على اللفظ. ومن كسر الياء، فعلى الأصل، لأنّ الكسرة تدل على الياء المحذوفة، ككسر الميم في " يا غلام! تعال⁽⁴⁰⁾ " .

لقد تجلت مسألة الاجتزاء في الدرس اللغوي عند أبي عمرو الداني المتوفى سنة (444هـ) في كتابه (المقنع في رسم المصحف)، فقد أفرد أبواباً لما حذف من حروف العلة واجتزأ عنها بالحركات، فقد أفرد باباً لحذف الألف وذكر عليه فصولاً تشتمل على مئات الألفاظ التي اجتزأوا فيها بالحركة عن الألف، وكذلك الياء والاجتزاء عنها بالكسرة، والواو والاجتزاء عنها بالضمة. واستعمل مصطلح الاجتزاء والاكتفاء في التعبير عن هذه الظاهرة في عناوين الأبواب التي أفردتها لهذه المسألة⁽⁴¹⁾، إن ما يميّز جهد الداني في هذا الموضوع أنّ الاجتزاء أصبح ظاهرة عنده، وأفردت بفصول خاصة في كتابه.

إنّ التفاوت بين العلماء في الأخذ بالاجتزاء أو قصره على التّوادر والضرورة مسألة بيّنة في الدرس النحوي، فابن مالك (المتوفى: 672هـ) ينصّ على أنّ العرب ربّما استغنوا مع الماضي - بالضمة عن الواو، نحو قول الشاعر: لو أنّ الأطباء كانُ حولي، وقول الآخر: إذا ما الناس جاعُ وأجدبوا، وعلق أبو حيان (المتوفى: 745 هـ) الذي راوح بين استعمال مصطلحي الاجتزاء والاستغناء على قول المصنّف بقوله: "وظاهر قول المصنّف: " وربّما " أنّه يجوز ذلك قليلاً"، أصحابنا إنّما أنشدوا ذلك على سيل الضرورة التي تختصّ بالشّع⁽⁴²⁾ر .

إنّ القول بالضرورة والندرة في باب الاجتزاء لا نعدم ما يناقضه عند أبي حيان الذي أخذ بالاجتزاء مدخلاً لتفسير بعض الاستعمالات اللغوية، يقول: "ومن ذهب إلى أنّ هذا التّصرّف في ياء الذي والتي من التّشديد في الياء، ومن حذفها والاجتزاء بالكسرة عنها، ومن حذفها

وتسكين المكسور، مختص بالشعر، فمذهب فاسد، وإنما نقله أئمة العربية على أنها لغات من الذي والي. قال الفراء: "ومن العرب من يقول: هو اللذ قال ذلك، ويقول في الواحد: هو اللذ قال ذلك، بجزم الذال، وفي الواحدة: هي اللت قالت ذلك" انتهى. وقد تقدّم من قولنا إن تشديد الياء في "لا نحفظه، لكن أكثر أصحابنا نص عليه كـ"الذي" سواء"⁽⁴³⁾. يقول في موضع آخر: "وأما كئن فإنه كائن في الأصل، حذفوا الألف منه اجتزاءً بالفتحة عنها، كما قالوا: أم والله لقد كان كذا، ولو تر أهل مكة، أي: أما، ولو ترى"⁽⁴⁴⁾.

لقد استعمل أبو حيان مصطلح الاجتزاء في تفسير حذف أحد الحروف أكثر من عشرين موضعاً في كتابه (تفسير البحر المحيط)⁽⁴⁵⁾، واستعمله قريباً من هذا العدد السمين الحلبي في كتابه (الدر المصون)⁽⁴⁶⁾، وهذا يدل على ارتقاء هذه المسألة إلى درجة من الشيوع تجعلها ظاهرة بارزة في الدرس اللغوي.

ثالثاً- مظاهر الاجتزاء بالفتحة عن الألف في القراءات:

لقد تعددت أنماط الاجتزاء في العربية بين الاجتزاء بالفتحة عن الألف، وبالضمّة عن الواو، وبالكسرة عن الياء، وقد رأيت أن أعرض المسائل التي حُمِلت على الاجتزاء بالفتحة عن الألف اعتماداً على ثلاثة مصادر جعلتهما مدونة للاجتزاء في القرآن الكريم، وهما تفسير البحر المحيط لأبي حيان، والدر المصون للسمين الحلبي، وحدائق الروح.

تشيع مواضع الاجتزاء بالحركة عن الحرف في القرآن الكريم شيوعاً ظاهراً، وكان هذا الاجتزاء ظاهراً في الرسم القرآني للمصحف الشريف، وعده علماء البلاغة من الإيجاز؛ مراعاة للنسق الجمالي في رؤوس الآيات، ولكنهم لم يعيروهم اهتماماً كافياً بلاغياً، ومن أمثله قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ سبأ، الآية: 45، أي نكيري، فحذف الياء، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (الفجر: 4) بحذف الياء من يسري، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ (الكهف: 64) أي نبغي، وقوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (الرعد: 9) "أي المتعالي، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ غافر (الآية: 5) أي عقابي. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِ﴾ القمر، (الآية 16).

والناظر في كتب التفسير لمعرفة علل الحذف والاجتزاء لا يكاد يجد أكثر من قولهم بمراعاة الفاصلة ورؤوس الآيات، وأحياناً كثيرة يمرون بها دون تعليل، على النحو الذي يطالعنا

عند الطبري على سبيل المثال عندما سكت عن تفسير نكير⁽⁴⁷⁾، والاكتفاء بالأخذ بمراعاة رؤوس الآيات في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ (الفجر: 4)، يقول: "وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ، فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَاءِ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ [يَسْرِ] (الفجر: 4) {بِغَيْرِ يَاءٍ، وَقَرَأَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْقُرَاءِ بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ؛ وَحَذَفُ الْيَاءِ فِي ذَلِكَ أَعْجَبُ إِلَيْنَا، لِيُؤَفَّقَ بَيْنَ رُءُوسِ الْآيِ إِذْ كَانَتْ بِالرَّاءِ. وَالْعَرَبُ رُبَّمَا أَسْقَطَتِ الْيَاءَ فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ مِثْلَ هَذَا، اكْتِفَاءً بِكَسْرَةِ مَا قَبْلَهَا مِنْهَا"⁽⁴⁸⁾.

إنَّ المسألة تتجاوز حدود العلل وذكرها أو عدمه في توجيه الاجتزاء إلى قضية جوهريّة في اللغة العربيّة، وهي مسألة المسافة بين النطق والرسم الإملائي أي الخط العربيّ، ففي بعض المواطن يتجلى الاجتزاء في الرسم بالاستغناء عن الحرف كتابة والاكتفاء به نطقاً، نحو: هذا، وهذه، وذلك، وأولئك، ولكن، وبسم الله، والرحمن، وغيرها الكثير، وهي مسألة بيّنة في العربيّة نجد لها صوراً كثيرة في الرسم القرآني والكتابة الاصطلاحيّة، وهي من حيث المبدأ وجه من أوجه الاجتزاء الذي غدا من المسلمات في العربيّة بحكم أنّ الرسم القرآني تواتر، فلا أحد يقبل: (لاكنّ، وهاذا، وهاذه) وغيرها من الأصول التي استغنيينا عنها بصور أخرى للكتابة استقرت في العربيّة قياساً واستعمالاً.

إنَّ الأصل أن يرسم الحرف كاملاً كما هو، يقول الرضي: "أصل كلّ كلمة في الكتابة أن يُنظر إليها مفردةً مستقلة عما قبلها وما بعدها، فلا جرم تُكتب بصورتها مبتدأ بها وموقوفاً عليها، فكتب مِن "ابنك" بهمزة الوصل؛ لأنك لو ابتدأت بها فلا بدّ من همزة الوصل، وكتبَ "ره زيداً" و "قه زيداً" بالهاء؛ لأنك إذا وقفت على ره فلا بدّ من الهاء"⁽⁴⁹⁾. إنَّ هذه الأصول في الكتابة يلازمها أصول في الوضع الذي انتقل لنا بالرواية والاستعمال في الرسم الإملائي، وعلينا تمثّله والالتزام به، وهذه مسألة أمثلتها في القرآن مشهودة شائعة، نحو الصلوة، والزكوة والحيوة، واللّه، وغيرها الكثير، فوجدنا أنفسنا أمام ظاهرتين: واحدة تُرسم الحروف ولا تنطق، وثانية تُحذف الحروف وتثبت نطقاً، والثانية مظهر جلي للاجتزاء أسهم في ترسيخ هذه المسألة ظاهرة في العربيّة، على الرّغم من تفاوت آراء العلماء فيها قبولاً أو رفضاً.

إنّنا لا يمكن أن نتجاوز مواطن الاجتزاء في القرآن الكريم في نحو: والليل إذا يسرّ، ويوم يدعّ الداع، وغيرها من مواضع الاجتزاء دون النّظر إلى المسافة بين النّطق والصورة الكتابيّة للفظ، فالنّطق هو الدّليل الأول على الاجتزاء بالحركة، لأنّ الصورة الكتابيّة تحتل عدّة تأويلات، ف (يسر) مثلاً يمكن تأويلها بيسير، ويسرّ ويسري، ويسرّ، والقول نفسه في (يدعّ)

التي تحتتمل صورتها يدعو، ويدعُ، ويدعُ، فهنا تتجلى الصورة النطقية التي تنوب عن الخطّ، والصورة الكتابية في فهم اللفظة.

إنّ علاقة الصورة الكتابية بالرسم القرآني مسألة في غاية الأهمية في توجيه الاجتزاء وتفسيّره في القرآن الكريم، فالرسم القرآني وصل إلينا بالتواتر والتزمّت به الأمة، وهو رسم يخالف الاصطلاح والقياس بقدرٍ، وفيه حذفٌ للحروف في كثير من المواطن، يقول الداني: "كتبوا" بسم الله الرحمن الرحيم "بغير ألف، وكتبوا" ملك يوم الدين "بغير ألف، قال أبو عمرو: وكذلك كتبوا ملك الملك، وكتبوا "ولبئس ما شروا به أنفسهم" مقطوعة، وكتبوا "الربوا" بالواو والألف في جميع القرآن إلّا حرفاً واحداً في سورة الروم "وما آتيتم من ربّ" في بعض المصاحف بغير واو، وكتبوا في بعضها بالواو وكتبوا "الصلوة" و "الزكاة" بالواو وكتبوا: "ولا تقتلوه" عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه فإن قتلوكم فاقتلوه" كلّها بغير ألف، وكتبوا "وقتلوه" حتى لا تكون فتنة "يعني بغير ألف، وكتبوا "يخدعون الله والذين آمنوا" بغير ألف، قال أبو عمرو: وكذلك كتبوا الحرف الثاني "وما يخدعون إلّا أنفسهم" وكذلك كتبوا في النساء "يخدعون الله وهو يخدعهم"، وكذلك كتبوا: "قلوبهم قسية" في المائدة و "فويل للقسية قلوبهم" في المزمر، قال نصير: وكتبوا "فادّرتهم فيها" بغير ألف "وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين" بغير ألف، وكتبوا: "وزاده بسطة في العلم" بالسین وكتبوا "والله يقبض ويبسط" بالصاد، وكتبوا "الحيوة" بالواو.⁽⁵⁰⁾

إنّ هذه المواطن التي وردت بالحذف المتواتر في رسم المصحف بقي منها روااسب في القرآن الكريم، فكانت المسافة كبيرة بين الرسم والنطق، سواء بحذف الحروف وإبقاء نطقها، أو زيادتها رسماً وتلاشياً نطقاً، ومن الأمثلة المختصرة على ذلك قول الداني: "حدّثنا أحمد بن عمر بن محمد بن عمرو الجيزي قراءة مّي عليه، قال حدّثنا محمد بن أحمد بن عبد العزيز الإمام، قال حدّثنا عبد الله ابن عيسى المدني، قال حدّثنا عيسى بن قالون عن نافع ابن أبي نعيم القارئ، قال: الألف غير مكتوبة يعني في المصاحف في قوله في البقرة "وما يخدعون" و "وإذ وعدنا" و "ووعدنا موسى" و "ووعدناكم" حيث وقعن، و "فأخذتكم الصعقة" و "تشبه علينا" و "به خطيئته" و "تظهرون" و "أسرى" و "تفدوهم" و "أو كلما عهدوا" و "تصريف الريح" و "طعام مسكين" و "فيضفه" و "يضعف" و "مضعفة" حيث وقعن، "ولولا دفع الله" حيث وقعت، وفي "فرهن مقبوضة"⁽⁵¹⁾.

إنَّ هذا الحذف في الرسم الإملائي طال مظاهر كثيرة في بعض المصاحف، مثل الأسماء الأعجمية، وجمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم، وما اجتمع فيه همزتان أو ثلاث ألفات، يقول الداني: "قال أبو عمرو واتفق كتاب المصاحف على حذف الألف من الأسماء الأعجمية المستعملة نحو: إبراهيم، وإسماعيل، واسحق، وهرون وعمرن، ولقمن وشبهها، وكذا حذفوها من: سليمان، وصالح، وملك، وخذ، وليست بأعجمية لما كثر استعمالها، فأما ما لم يستعمل من الأعجمية، فأنهم اثبتوا الألف فيه نحو: طالوت، وجالوت، وياجوج، ومأجوج وشبهها، ورأيت المصاحف تختلف في أربعة منها وهي: هاروت، وماروت، وهامان، وقارون؛ ففي بعضها بالألف، وفي بعضها بغير الألف، والأكثر على إثبات الألف..... كذلك اتفقوا على حذف الألف من الجمع السالم الكثير الدور في المذكر والمؤنث جميعاً فالمذكر نحو: العلمين، والصبرين، والصدقين، والفسقين، والمنفقين، والكافرين، والشيطين، والظلمون، والخسرون، والسحرون، والكفرون؛ والمؤنث نحو المسلمت، والمؤمنت، والطيبات، والخبيثات، والكلمات، وفي ظلمت، والظلمت، وبكلمت، والمتصدقت، وثيبت، وبنيت، والغرفت... وما اجتمع فيه ألفان من جمع المؤنث السالم؛ فإنَّ الرسم في أكثر المصاحف ورد بحذفها معاً سواء كان بعد الألف حرف مضعّف أو همزة، نحو: الصلحت، والحفظت، والصدقت" (52).

إنَّ هذا التفاوت بين الحذف والإثبات طال مفردات كثيرة أتى على ذكرها علماء رسم المصحف بما يغني عن الإعادة (53)، ولسنا ننكر أنَّ هذا التفاوت تلاشى في المصاحف عندما جُمعت ووحدت في مصحف واحد، غير أنَّنا نلمس روايب لهذا الحذف والإثبات في الرسم القرآني الموحد، وقد كان للقراءات القرآنية أثر في ترسيخ بعض مظاهر التفاوت، نحو التفاوت بين مالك وملك يوم الدين (54)، والريح والرياح (55)، وغيرها كثير، وقد كان للاجتزاء نصيب في توجيه حذف الألف وتفسيره في بعض القراءات.

لقد نظر المحدثون إلى هذه المسألة نظرة بلاغية من حيث تفسيرها: "إنَّ العربيَّ قد اعتاد أن يختصر من الكلمة إيجازاً في نُطقه وتخفُّفاً، وذلك في بعض كلامه ممَّا يكثر تداوله، فيحذف بعض حروف الكلمة، وأن يختصر أيضاً فيحذف بعض ما يُنزلُ مَنْزِلَةً جُزءَ الكلمة، كالجزء الثاني من المركب تركيباً مَزْجِيّاً، وكالمضاف إليه، وكياء المتكلم، وأداة النداء" (56). وقد وقف محمد أبو موسى في كتابه (خصائص التراكيب) مع الدلالات البلاغية لهذا الاجتزاء الذي هو نمط من أشكال الحذف، يقول: "أننا نجد في إشارات علمائنا السابقين ما يلمس الجانب

البلاغي في هذا النوع من الحذف، فهم يقولون مثلاً في سبب الترخيم في قراءة: {وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ} قالوا: إنهم لشدة ما هم فيه عجزوا عن تمام الكلام، وهذه علة بلاغية: لأنها تشير إلى ما وراء هذا الحذف من ضيق الصدر، وغلبة اليأس ومعاناة الهول ومعاناة شغلهم عن إتمام الكلمة. ومن هذه الإشارات ما حكاه قوم من أصحاب الكتب -كما قال ابن رشيق في قوله -صلى الله عليه وسلم-: "كفى بالسيف شاً": أراد شاهداً فحذف، وقالوا في تعليل ذلك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد أن يصير هذا الخبر حكماً شرعياً، فقطع الكلام وأمسك عن تمامه، وسواء صحَّ الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لم يصح فالثابت لنا منه أن الدارسين أدركوا أن وراء حذف جزء الكلمة إشارة نصبت دليلاً على شيء.

وقد أشار الأخفش إلى أن هذا الحذف قد ينتفع به في الدلالات المعنوية، لما سألته المورج السدوسي عن قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} أي عن حذف حرف العلة فيه من غير ناصب ولا جازم، قال الأخفش: "عادة العرب أنها إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه، والليل لما كان لا يسري، وإنما يسري فيه نقص منه حرف، كما قال تعالى: {وَمَا كَأَنَّكَ بُغِيًّا} ، الأصل بغية ؛ فلما حوّل عن فاعل نقص منه حرف"، والحذف هنا دليل على شيء في المعنى أي في دلالة اللفظ على معناه، وواضح أن الذي ذكره الأخفش في هذا ليس قاعدة، وإنما هو تصرف قد يكون منهم في مثل هذا الذي ذكره"⁽⁵⁷⁾.

يقول أبو حيان: "الاجتزاء بالفتحة عن الألف أقل من الاجتزاء بالكسرة عن الياء، والضمة عن الواو"⁽⁵⁸⁾، ومن المواضع التي حُمِلت على الاجتزاء بالفتحة عن الألف قراءة قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود، الآية: 42). وردت في (ابنه) عدة قراءات؛ "قرأ السُّدِّيُّ ابْنَاهُ بِالْفِ وَهَاءِ السَّكَبِ . قَالَ أَبُو الْفَتْحِ : ذَلِكَ عَلَى النَّدَاءِ . وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ إِلَى أَنَّهُ عَلَى النَّدْبَةِ وَالرِّثَاءِ . وَقَرَأَ عَلِيُّ، وَعُزُودٌ، وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَابْنُهُ أَبُو جَعْفَرٍ، وَابْنُهُ جَعْفَرٌ : ابْنُهُ بِفَتْحِ الْهَاءِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ أَيْ: ابْنَهَا مُضَافًا لِضَمِيرِ امْرَأَتِهِ، فَاكْتَفَى بِالْفَتْحَةِ عَنِ الْأَلِفِ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : وَهِيَ لُغَةٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

إِذَا تَقَوَّدُ بِهَا شَاءَ فَتَأْكُلُهَا أَوْ أَنْ تَبِيعَهُ فِي بَعْضِ الْأَرَاكِيبِ

وَأَنْشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ عَلَى هَذَا:

فَلَسْتُ بِمُدْرِكٍ مَا فَاتَ مِنِّي بِلَهْفٍ وَلَا بِلَيْتٍ وَلَا لَوَائِي

انتهى. يريد تبيعها وتلفها، وَخَطَّ النَّحَّاسُ أَبَا حَاتِمٍ فِي حَذْفِ هَذِهِ الْأَلْفِ، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَلَيْسَ كَمَا قَالَ، انْتَهَى. وَهَذَا أَغْنَى مِثْلَ تَلَفَ بِحَذْفِ الْأَلْفِ عِنْدَ أَصْحَابِنَا ضَرُورَةً، وَلِذَلِكَ لَا يُجِيزُونَ يَا غَلَامَ بِحَذْفِ الْأَلْفِ، وَالْاجْتِزَاءُ بِالْفَتْحَةِ عَنْهَا كَمَا اجْتَزَّؤُوا بِالْكَسْرِ فِي يَا غَلَامَ عَنِ الْيَاءِ، وَأَجَازَ ذَلِكَ الْأَخْفَشُ. وَقَرَأَ أَيْضًا عَلِيٌّ وَعُرْوَةُ ابْنَهَا بِفَتْحِ الْهَاءِ وَالْفِ" (59).

وهذا التفسير لا يبتعد عما ذكره ابن جني في هذه المسألة، يقول: "من ذلك قراءة علي بن أبي طالب -عليه السلام- وعروة بن الزبير وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي عبد الله جعفر بن محمد: ونادى نُوحُ ابْنَهُ، وَرُوي عنه عروة: ابْنَهَا، وقراً: ابْنَاهُ ممدودة الألف، السدّي على النداء، وبلغني أنه على التثني، وَرُوي عن ابن عباس: "نُوحُ ابْنَهُ" جزم. قال أبو الفتح: "أما" ابْنَهُ "فإنه أراد ابنها، كما يُروى عن عروة فيما قرأ: ابنها"; يعني: ابن امرأته: لأنه قد جرى ذكرها في قوله سبحانه: وَأَهْلَكَ، فحذف الألف تخفيفاً" (60).

وقد توسّع السمين في ذكر القراءات في هذه الآية وتوجيهها، ولم يبتعد كثيراً عما ذكره أبو حيان فيها، يقول: "وقرأ السدّي (ابنائه) بألف وهاء السكت. قال ابن جني: وهو على النداء، وقال أبو البقاء: ابنائه: على التثني وليس بندية، لأنّ الندبة لا تكون بالهمزة، وهو كلامٌ مُشْكَلٌ في نفسه، وأين الهمزة هنا؟ إن عني همزة النداء فلا نسلم أنّ المقدّر من حروف النداء هو الهمزة، لأنّ النّحاة نصّوا على أنّه لا يُضمّر في حروف النداء إلا «يا» لأنّها أمّ الباب. وقوله: التثني هو قريب في المعنى من الندبة. وقد نصّوا على أنّه لا يجوز حذف النداء من المندوب وهذا شبيه به، وقرأ عليّ عليه السلام (ابنها) إضافة إلى امرأته، كأنّه اعتبر قوله: ليس من أهلك. وقوله: ابني ومن أهلي لا يدلّ له؛ لاحتمال أن يكون ذلك لأجل الحنو. وهو قول الحسن وجماعة، وقرأ محمد بن علي وعروة والزبير (ابنّه) بهاء مفتوحة دون ألف، وهي كالقراءة قبلها، إلا أنّه حذف ألف «ها» مُجْتَزئاً عنها بالفتحة، كما تُحذف الياء مُجْتَزئاً عنها بالكسرة" (61).

وجاء في (حدائق الروح تفسير) تفسير للحذف اجتزاء بالفتحة، وقيل: حذفت الألف بسبب الراء في (اركب) بعدها، يقول: "وقرأ عاصم: يا بنيّ اركب معنا، بفتح الياء، ووجه على أنّه اجتزأ بالفتحة عن الألف، وأصله يا بُنْيَا، كذا غلاماً ثُمَّ حذفت، وبقيت الفتحة لِتَدُلَّ عليه، أو على أنّ الألف انحذفت لالتقاءها مع راء اركب" (62)، أي لالتقاء الساكنين، وهو تفسير لا يخلو من المنطقية في التحليل.

ومما حُمل على الاجتزاء بالفتحة عن الألف قراءة قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الزخرف، آية: 88)، يقول أبو حيّان: "وَقَرَأَ أَبُو قِلَابَةَ: يَا رَبِّ، بِفَتْحِ الْبَاءِ أَرَادَ: يَا رَبِّ، كَمَا تَقُولُ: يَا غُلَامُ. وَتَخْرُجُ عَلَى جَوَازِ الْأَخْفَشِ: يَا قَوْمَ، بِالْفَتْحِ وَحَذْفِ الْأَلِفِ وَالْإِجْزَاءِ بِالْفَتْحَةِ عَنْهَا⁽⁶³⁾". وهذا القول نصّ عليه السمين في قوله: "وقرأ أبو قلابة (يا ربّ) بفتح الباء على قلب الياء ألفاً ثم حذفتها مجتزئاً عنها بالفتحة ... والأخفش يطردها"⁽⁶⁴⁾.

إنّ القول بالاجتزاء بالفتحة عن الألف يتحقّق عليه العلماء، فهو في قراءات شاذة، وتأويلها بعيد لا يخلو من التكلّف، والرأي المنسوب إلى الأخفش بالأخذ به جاء في معاني القرآن لتفسير الفتح في بعض القراءات، وأظهرها قوله: "وأما قوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ﴾ (مريم، آية: 45) فأنّت هذا الاسم بالهاء كقولك "رجلٌ رُبْعَةٌ" و"غلامٌ يَفْعَةٌ". أو يكون أدخلها لما نقص من الاسم عوضاً. وقد فتح قوم كأثمهم أرادوا "يا أبّا" فحذفوا الألف كما يحذفون الياء، كما قال الشاعر:

ولسنتُ بمُدرِكٍ ما فَاتَ مَيِّ لَهْفَ "ولا ب"ليت" ولا لَوَانِي

يريد: لهفاه. "ومما يدلّك على أنّ هذا الاسم أنث بالهاء قول الشاعر:

تقولُ ابنتي لما رأتني شاجِباً كَأَنَّكَ فينا يا أَبَاتٍ غريبُ

فردّ الألف، وزاد عليها الهاء، كما أنث في قوله: يا أمتاه "فهذه ثلاثة أحرف. ومن العرب من يقول: يا أمّ لا تفعلني، رَحِمَ كما قال: يا صاح. ومنهم من يقول: يا أمي، ويا أبي، على لغة الذين قالوا: يا غلامي. ومنهم من يقول: يا أب، ويا أمّ، وهي الجيدة في القياس"⁽⁶⁵⁾.

وفي موضع آخر فسّر الأخفش الفتح بالترّكّب متابعة لسيبويه في هذه المسألة، في قوله تعالى: ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف، آية: 151) يقول: "وقال: ابْنُ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ. وذلك - والله أعلم - أنّه جعله اسماً واحداً مثل قولهم: ابْنُ عَمِّ أَقْبَلُ، وهذا لا يقاس عليه. وقال بعضهم: يا ابنَ أُمِّي لا تأخذ، وهو القياس، ولكنّ الكتاب ليست فيه ياءٌ فلذلك كره هذا. وقال الشاعر:

يَا ابْنَ أُمِّي وَلَوْ شَهِدْتُكَ إِذْ تَدَّ عَوْتِمِيماً وَأَنْتَ غَيْرُ مُجَابٍ

وقال بعضهم: يا ابنَ أُمِّ، فجعله على لغة الذين يقولون: هذا غلام قد جاء، أو جعله اسماً واحداً آخره مكسور مثل "خازيار"⁽⁶⁶⁾.

إنّ هذه الظاهرة أي الاجتزاء بالفتحة عن الكسرة ألقت بظلالها على الإعراب بين القول بإعراب الأصل الظاهر أو إعراب الأصل الافتراضي، أو الجمع بينهما، يقول الهرري: "وإن

شئت قلت: ابْنٌ : منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وعلامة نصبه فتحة ظاهرة في آخره، {ابْنٌ {مضاف، {أُمٌّ: مضاف إليه مجرور وعلامة جرّه كسرة مقدّرة على ما قبل ياء المتكلم المنقلبة ألفا للتخفيف، بعد قلب الكسرة فتحة، المحذوفة تلك الألف اجتزاء عنها بالفتحة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة: لأنّ ما قبل ياء المتكلم لا يكون إلا مكسوراً، أُمٌّ : مضاف، وياء المتكلم المنقلبة ألفا للتخفيف في محل الجر مضاف إليه، مبني على السكون، هذا على قراءة فتح ميم (أُمٌّ). {وأما على قراءة كسر ميم أُمٌّ}، فتقول في إعرابه: ابْنٌ: {مضاف، {أُمٌّ: مضاف إليه مجرور بالمضاف، وعلامة جرّه كسرة مقدّرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة لياء المتكلم المحذوفة، اجتزاء عنها بالكسرة {أُمٌّ: مضاف، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة في محل الجر مضاف إليه" (67).

إنّ القول بالاجتزاء في هذا الموضع لالتقاء الساكنين ينقضه الاجتزاء بالفتحة عن الألف في مواطن لا التقاء للساكنين فيها، ومن ذلك على سبيل المثال: "وقرأ البزّي وابن كثير: يا بني {بإسكان الياء}، يا بني {بفتح الياء} . ويا بني أقم بفتحها . وقيل: بالسكون في الأولى والثالثة. والكسر في الوسط، وقرأ حفص والمفضل عن عاصم بالفتح في الثلاثة على تقدير يا بني، والاجتزاء عن الألف، وقرأ باقي السبعة بالكسري الثالثة" (68).

إنّ الاجتزاء بالفتحة عن الألف ظهر في قراءات سبعية، وأخذ به العلماء في التفسير دون أن يتعلق الأمر برؤوس الآيات، ومن أمثلة ذلك قراءة قوله تعالى: ﴿ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف، آية: 151) فقد ذكر أبو حيّان: "وَقَرَأَ الْحَزْمِيُّانِ وَأَبُو عَمْرٍو وَحَفْصٌ: ابْنُ أُمِّ بِفَتْحِ الْمِيمِ، فَقَالَ الْكُوفِيُّونَ: أَصْلُهُ يَا ابْنَ أُمَّاهُ فَحُذِفَتِ الْأَلْفُ تَخْفِيفًا، كَمَا حُذِفَتْ فِي يَا غُلَامُ، وَأَصْلُهُ يَا غُلَامًا، وَسَقَطَتْ هَاءُ السَّكْتِ؛ لِأَنَّهُ دَرَجٌ، فَعَلَى هَذَا الْإِسْمِ مُعَرَّبٌ إِذِ الْأَلْفُ مُنْقَلِبَةٌ عَنْ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، فَهُوَ مُضَافٌ إِلَيْهِ ابْنٌ، وَقَالَ سِيبَوَيْهِ: هُمَا اسْمَانِ بَيْنَا عَلَى الْفَتْحِ كَاسْمٍ وَاحِدٍ كَخَمْسَةِ عَشَرَ وَنَحْوِهِ، فَعَلَى قَوْلِهِ لَيْسَ مُضَافًا إِلَيْهِ ابْنٌ، وَالْحَرَكَةُ حَرَكَةُ بِنَاءٍ، وَقَرَأَ بَاقِي السَّبْعَةِ بِكَسْرِ الْمِيمِ، فَقِيَاسُ قَوْلِ الْكُوفِيِّينَ أَنَّهُ مُعَرَّبٌ، وَحُذِفَتْ يَاءُ الْمُتَكَلِّمِ وَاجْتَزِئَ بِالْكَسْرِ عَنْهَا، كَمَا اجْتَزَعُوا بِالْفَتْحِ عَنِ الْأَلْفِ الْمُنْقَلِبَةِ عَنْ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، وَقَالَ سِيبَوَيْهِ: هُوَ مَبْنِيٌّ أَضِيفَ إِلَى يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ، كَمَا قَالُوا: يَا أَحَدَ عَشَرَ أَقْبَلُوا، وَحُذِفَتْ الْيَاءُ وَاجْتَزَعُوا بِالْكَسْرِ عَنْهَا، كَمَا اجْتَزَعُوا فِي يَا قَوْمِ ، وَلَوْ كَانَا بَاقِيَيْنِ عَلَى

الإِضَافَةُ لَمْ يَجُزْ حَذْفُ الْيَاءِ؛ لِأَنَّ الْإِسْمَ لَيْسَ بِمُنَادَى، وَلَكِنَّهُ مُضَافٌ إِلَيْهِ الْمُنَادَى فَلَا يَجُوزُ حَذْفُ الْيَاءِ مِنْهُ، وَقُرِئَ بِإِثْبَاتِ يَاءِ الْإِضَافَةِ⁽⁶⁹⁾.

لقد علق أبو حيان على هذه القراءة مفسراً لها بتحويلات صوتية لا تخلو من التعقيد بقوله: "وَأَجُودُ اللُّغَاتِ الْاجْتِزَاءُ بِالْكَسْرِ عَنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، ثُمَّ قَلْبُ الْيَاءِ أَلِفًا وَالْكَسْرُ قَبْلَهَا فَتَحَةً، ثُمَّ حَذْفُ التَّاءِ وَفَتْحُ الْمِيمِ، ثُمَّ إِثْبَاتُ التَّاءِ مَفْتُوحَةً أَوْ سَاكِئَةً، وَهَذِهِ اللُّغَاتُ جَائِزَةٌ فِي ابْنَةِ أُمِّي، وَفِي ابْنِ عَمِّي، وَابْنَةِ عَمِّي، وَقُرِئَ يَا ابْنَ أُمِّي بِإِثْبَاتِ الْيَاءِ، وَابْنٌ إِمَّ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَالْمِيمِ"⁽⁷⁰⁾.

وبالعودة إلى كتاب سيبويه للتحقق من رأيه في هذه المسألة وجدته ينصّ على مسألة التركيب في توجيه الحذف، يقول: "قالوا: يا ابنَ أُمِّ ويا ابنَ عَمِّ، فجعلوا ذلك بمنزلة اسم واحد؛ لأنَّ هذا أكثرُ في كلامهم من يا ابنَ أَبِي ويا غلامَ غلامي. وقد قالوا أيضاً: يا ابنَ أُمِّ ويا ابنَ عَمِّ، كأنَّهم جعلوا الأول والآخر اسماً، ثم أضافوا إلى الياء، كقولك: يا أحدَ عشرَ أقبلوا. وإن شئت قلت: حذفوا الياء لكثرة هذا في كلامهم، وعلى هذا قال أبو النجم: (يا ابنةَ عَمَّا لا تلومي واهجعي) واعلم أنَّ كلَّ شيء ابتدأته في هذين البابين أولاً فهو في القياس. وجميع ما وصفناه من هذه اللغات سمعناه من الخليل رحمه الله ويونس عن العرب"⁽⁷¹⁾.

إنَّ القول بحذف الألف والاجتزاء عنها بالفتحة يقتضي أنَّ نقدر إبدال ياء الإضافة أَلِفًا ثُمَّ حذفها، لأنَّ وجودها غير مبرّر، ويبدولي أنَّ القول بالإبدال ثُمَّ الحذف والتعويض مسألة لا تخلو من التكلف، ولعلَّ الأظهر فيها أن نقول: إنَّ أصلها يا ابن عَمِّي، فكُسِرَ حرف الإعراب لمناسبة الياء، ولمَّا حذف الياء لمحو فيه الأصل وهو الفتح، فعادوا إليه لانتفاء مبرّر الكسر، على لغة من لا ينتظر، ودليلنا على ذلك قول سيبويه: "وحدَّثنا يونس أنَّ بعض العرب يقول: يا أُمِّ لا تفعلي، جعلوا هذه الهاء بمنزلة هاء طلحة إذ قالوا: يا طلحَ أقبل؛ لأنَّهم رأوها متحركة بمنزلة هاء طلحة فحذفوها، ولا يجوز ذلك في غير الأم من المضاف"⁽⁷²⁾. فالفتحة في (طلح) تقابل الفتحة في يا أُمِّ بعد حذف ياء الإضافة.

إنَّ الاجتزاء بالفتحة عن الألف في هذه المواضع جاء على لغة من يبدل الياء أَلِفًا طلباً للخفة كما قال سيبويه⁽⁷³⁾، وهو مخالف للأصل، وهذا الحذف يدخل في باب التعويض عن الياء ثُمَّ الاستغناء عمَّا عوضنا به، يقول سيبويه: "وقد يُبدلون مكان الياء الألف لأنَّها أخفُّ، وسنبين ذلك إن شاء الله، وذلك قولك: يا رَبِّا تجاوز عَنَّا، ويا غلاماً لا تفعل. فإذا وقفت قلت:

يا غلاماه. وإنما ألحقت الهاء ليكون أوضح للألف؛ لأنها خفيفة. وعلى هذا التحو يجوز: يا أباه، ويا أمّاه... وتقول: يا أمّناه كما تقول: يا خالتاه. وإنما يلزمون هذه الهاء في النداء إذا أضفت إلى نفسك خاصّة، كأنهم جعلوها عوضاً من حذف الياء، وأرادوا أن لا يخلوا بالاسم حين اجتماع فيه حذف الياء، وأنهم لا يكادون يقولون: يا أباه ويا أمّاه، وهي قليلة في كلامهم، وصار هذا محتملاً عندهم لما دخل النداء من التّغيير والحذف، فأرادوا أن يعوضوا هذين الحرفين⁽⁷⁴⁾.

لقد لخصّ الأشموني آراء العلماء في تفسير هذه اللغة- أي الفتح في أبت ونظائرها- بقوله: أمّا الفتح ففيه قولان: أحدهما أن الأصل: أمّا وعمّا بقلب الياء ألفاً؛ فحذفت الألف وبقيت الفتحة دليلاً عليها، الثاني أنهما جعلتا اسمًا واحدًا مركّبًا وبُني على الفتح، والأول قول الكسائي والفرّاء وأبي عبيدة وحكي عن الأخفش، والثاني قيل: هو مذهب سيبويه والبصريين. وأمّا الكسر فظاهر مذهب الزجاج وغيره أنّه مما اجتزئ فيه بالكسرة عن الياء المحذوفة من غير تركيب، قال في الارتشاف: وأصحابنا يعتقدون أن "ابن أمّ" و"ابنة أمّ" و"ابن عمّ" و"ابنة عمّ" حكمت لها العرب بحكم اسم واحد وحذفوا الياء كحذفهم إياها من أحد عشر إذا أضافوه إليها⁽⁷⁵⁾.

ومما حُمل على الاجتزاء بالفتحة عن الألف في القرآن الكريم قراءة قوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود، آية 42)، "قرأ البزّي: يا بُنَيَّ، بالسُّكُون، ويا بُنَيَّ إِيَّاهَا: بكسر الياء، ويا بُنَيَّ أَقِم: بِفَتْحِهَا. وَقِيلَ: بِالسُّكُونِ فِي الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ، وَالْكَسْرِ فِي الْوُسْطَى وَحَفْصُ الْمُفْضَلِ عَنْ عَاصِمٍ: بِالْفَتْحِ فِي الثَّلَاثَةِ عَلَى تَقْدِيرِ يَا بَنِي، وَالْاجْتِزَاءُ بِالْفَتْحَةِ عَنِ الْأَلْفِ"⁽⁷⁶⁾. وعلّق السّمين على هذا الموضع بقوله: "قرأ البزّي وقالون وخلاّد بإظهار ياء اركب قبل ميم معنا بخلاف عنهم، والباقون بالإدغام، وقرأ عاصم هنا: يا بنيّ، بفتح الياء. وأمّا في غير هذه السّورة فإنّ حفصاً عنه فعَلَ ذلك، والباقون بكسر الياء في جميع القرآن إلا ابن كثير فإنّه في الأول من لقمان وهو قوله: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللّهِ﴾ (لقمان: 13) فإنّه سكّنه وصلاً ووقفاً، وفي الثاني كغيره أعني أنّه يكسرياءه، وحفص على أصله من فتحه. وفي الثالث وهو قوله: ﴿يَا بَنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ (لقمان: 17) اختلّف عنه، فروى عنه البزّي كحفص، وروى عنه قنبل السّكون كالأول. هذا ضبط القراءة"⁽⁷⁷⁾.

إنّ تخريج السمين للقراءة أعمق من تخريج أبي حيّان، فقد قال فيها: "وأما تخريجها فَمَنْ فتح ففيل: أصلها: يا بُنَيَّا بالألف فحذفت الألف تخفيفاً، اجتزأ عنها بالفتحة، وقد تقدّم

من ذلك أمثلة كثيرة. وقيل بل حُذِفَتْ لالتقاء الساكنين؛ لأنها وقع بعدها راء (اركب) وهذا تعليلٌ فاسدٌ جداً، بدليل سقوطها في سورة لقمان في ثلاثة مواضع حيث لا ساكنان. وكأنَّ هذا المُعِلِّلَ لم يَعْلَمْ بقراءة عاصم في غير هذه السورة، ولا بقراءة البزي للأخيرة في لقمان، وقد نُقِلَ ذلك أبو البقاء ولم يُنَكِّزْه⁽⁷⁸⁾.

ومن المواضع التي حملت على حذف الألف والاكتفاء بالفتحة عنها توجيه قراءة قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال، آية 25) يقول ابن جني: "ومن ذلك قراءة العامة: لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا، وقراءة علي وزيد بن ثابت وأبي جعفر محمد بن علي والربيع بن أنس وأبي العالية وابن جماز: لَتُصِيبَنَّ، قال أبو الفتح: معنيا هاتين القراءتين ضدان كما ترى؛ لأن إحداهما: لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً، والأخرى: لَتُصِيبَنَّ هؤلاء بأعيانهم خاصة. وإذا تباعد معنيا قراءتين هذا التباعد، وأمكن أن يُجمع بينهما كان ذلك جميلاً وحسناً، ولا يجوز أن يراد زيادة" لا "من قبل أنه كان و يصير معناه: واتقوا فتنة تُصِيبُ الذين ظلموا منكم خاصة، فليس هذا عندنا من مواضع دخول التَّوْنِ، ألا تراك لا تقول: ضربت رجلاً يدخلُ المسجد؟ هذا خطأ لا يقال؛ ولكن أقرب ما يصرف إليه الأمر في تلافي معنى القراءتين أن يكون يراد: لا تُصِيبَنَّ، ثم يحذف الألف من "لا" تخفيفاً واكتفاء بالفتحة منها، فقد فعَلَتِ العرب هذا في أخت "لا" وهي أَمَا، من ذلك ما حكاه محمد بن الحسن من قول بعضهم: أَمَ والله ليكونن كذا، فحذف ألف أَمَا تخفيفاً⁽⁷⁹⁾.

لقد جاء الفروناني على هذه الآية وما فيها من قراءات، وما قيل فيها من اجتزاء، وانتهى إلى القول بأن الأصل (لتصيبن) وقراءة (لا تصيبن) من باب الإشباع، مجازة لعلماء سابقين قالوا بهذا الرأي⁽⁸⁰⁾، والحقيقة أن الإشباع نمط لا يلتقي مع الاجتزاء، فلا جدوى من إشباع يتبعه اجتزاء، وأرى أن كل قراءة أصل بذاتها، ولها معناها. وإذا كان المعنى هو ضابط الاجتزاء أو عدمه في قوله تعالى (لتصيبن) فإننا نجد المعنى نفسه هو المانع في الإشباع أو القول بالاجتزاء في قوله تعالى (لتجدن) وهي نظير (تصيبن)، ففي قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسْيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: 82) لا يصح أن نقول: أصلها (لا تجدن) ولا يجوز القول: إن (لتجدن) فيها اجتزاء بالفتحة عن الألف؛ لأن معنى الآية يتوقف على إثبات (لتجدن) دون القول بالاجتزاء.

ومما حُمل على الاجتزاء بالفتحة عن الألف قراءة قوله تعالى ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (يس، آية 30)، يقول أبو حيان: "وَقَرَأَ أَبُو الزِّنَادِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ ذَكْوَانَ الْمَدَنِيُّ، وَابْنُ هُرْمَزٍ، وَابْنُ جُنْدَبٍ: يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ، بِسُكُونِ الْهَاءِ فِي الْحَالَيْنِ حَمَلَ فِيهِ الْوُضَلَ عَلَى الْوُفْرِ، وَوَقَفُوا عَلَى الْهَاءِ مُبَالَغَةً فِي التَّحْسِيرِ، لِمَا فِي الْهَاءِ مِنَ التَّأْهِهِ كَالْتَأْوِهِ، ثُمَّ وَصَلُوا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، قَالَهُ صَاحِبُ اللَّوَامِحِ. وَقَالَ ابْنُ خَالَوَيْهِ: يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ بِغَيْرِ تَنْوِينٍ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، انْتَبَى، وَوَجْهُهُ أَنَّهُ اجْتَزَأَ بِالْفَتْحَةِ عَنِ الْأَلْفِ الَّتِي هِيَ بَدَلُ مِنْ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ فِي الْبَدَاءِ، كَمَا اجْتَزَأَ بِالْكَسْرِ عَنِ الْيَاءِ فِيهِ. وَقَدْ قُرِئَ: يَا حَسْرَتَا، بِالْأَلْفِ، أَيْ يَا حَسْرَتِي، وَيَكُونُ مِنَ اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ فِي مَعْنَى تَعْظِيمِ مَا جَنَوَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَقُرِطُ إِنْكَارِهِ وَتَعْجِيبِهِ مِنْهُ"⁽⁸¹⁾.

لقد توسّع ابن جني في توجيه قراءات هذه الآية وتفسيرها، غير أنه أهمل القول بمسألة الاجتزاء بالفتحة عن الألف فيها⁽⁸²⁾، ولم يبتعد السمين عما قاله أبو حيان في توجيه هذه القراءة، غير أنه لم يجعل الألف بدلاً من ياء المتكلم الذي قال به أبو حيان، يقول: "وقرأ ابن عباس أيضاً (يا حَسْرَةً) بفتح التاء من غير تنوين. ووجهها أَنَّ الْأَصْلَ: يَا حَسْرَتَا فَاجْتَزِئَ بِالْفَتْحَةِ عَنِ الْأَلْفِ كَمَا اجْتَزِئَ بِالْكَسْرِ عَنِ الْيَاءِ"⁽⁸³⁾.

ومما حُمل أيضاً على الاجتزاء بالفتحة عن الألف قراءة قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف، آية: 4) يقول أبو حيان: "وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَالْأَعْرَجُ: يَا أَبَتِ بِفَتْحِ التَّاءِ، وَبَاقِي السَّبْعَةِ وَالْجُمْهُورُ بِكَسْرِهَا، وَوَقَفَ الْإِثْنَانِ عَلِمًا بِالْهَاءِ، وَهَذِهِ التَّاءُ عَوَضٌ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ فَلَا يَجْتَمِعَانِ، وَتَجَامَعُ الْأَلْفُ الَّتِي هِيَ بَدَلُ مِنَ التَّاءِ قَالَ: يَا أَبَتَا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكَ. وَوَجْهُ الْإِقْتِصَارِ عَلَى التَّاءِ مَفْتُوحَةٌ أَنَّهُ اجْتَزَأَ بِالْفَتْحَةِ عَنِ الْأَلْفِ، أَوْ رُخِمَ بِحَذْفِ التَّاءِ، ثُمَّ أُفْحِمَتْ، قَالَهُ أَبُو عَلِيٍّ أَوْ الْأَلْفُ فِي أَبْتَا لِلنُّدْبَةِ، فَحَذَفَهَا قَالَهُ: الْفَرَاءُ، وَأَبُو عُبَيْدٍ، وَأَبُو حَاتِمٍ، وَقُطْرُبٌ. وَرَدَّ بِأَنَّهُ لَيْسَ مَوْضِعُ نُدْبَةٍ أَوْ الْأَصْلُ يَا أَبَةً بِالتَّنْوِينِ، فَحَذَفَ وَالْبَدَاءُ بَابَ حُذْفِ قَالَهُ قُطْرُبٌ، وَرَدَّ بِأَنَّ التَّنْوِينَ لَا يُحْذَفُ مِنَ الْمُنَادَى الْمُنْصُوبِ نَحْوُ: يَا ضَارِبًا رَجُلًا"⁽⁸⁴⁾. وهذه التوجيهات ذكرها السمين واختصرها بقوله: وأما الفتحة ففيه أربعة أوجه، ذكر الفارسي منها وجهين، أحدهما: أنه اجْتَزَأَ بِالْفَتْحَةِ عَنِ الْأَلْفِ، يعني عن الألف المنقلبة عن الياء، والثاني: أنه رُخِمَ بِحَذْفِ التَّاءِ، ثم أْفَحِمَتْ التَّاءُ مفتوحة. الثالث: ما ذكره الفراء وأبو عبيد وأبو حاتم وقطرب في أحد قوليه وهو أَنَّ الْأَلْفَ

في (با أبتا) للندبة، ثم حَذَفَهَا مُجْتَرِئاً عنها بالفتحة، الرابع: أَنَّ الأصل: يا أبةً بالتنوين، فحذف التنوين لأنَّ النداء بابٌ حذف⁽⁸⁵⁾.

إنَّ اعتراض أبي حيان والسّمين وغيرهما من العلماء على بعض هذه التوجيهات دليل على أنَّها لا تخلو من التكلّف والبعد، ولا أحسب أنَّ الألف هنا مبررة، ولا التّاء أيضاً، ولا القول بحذف التّاء والتّعويض عنها أو الإقحام، والذي يبدو لي في هذه الأنماط من الاجتزاء أنَّ الأصل: يا أبي، وهو القياس، والأصل في إعرابها أنَّه منادى منصوب بالفتحة؛ لأنَّه مضاف، ولكن منع من ظهور الفتحة اشتغال المحل بحركة المناسبة، أي بالكسرة مناسبة لياء المتكلّم وهي مضاف إليه، ولما شاع الحذف طلباً للخفة كما نصّ سيبويه وغيره من العلماء في هذه التراكمات في باب النداء، حذفت ياء المتكلّم، ولم يعد هناك مبرّر لوجود الكسرة بعد انتفاء السبب؛ فلمحوا فيه أصل التّصّب، فأعادوا الفتحة إلى وضعها الطبيعي، فقالوا: يا أب، وإضافة التّاء في بعض الاستعمالات إنّما هو من باب إصلاح اللفظ، والتّعويض عن المحذوف.

والذي يؤيد ما أذهب إليه أنَّ من العلماء من نصّ على أنَّ من أقحم الألف يكون أدخلها لما نقص من الاسم عوضاً، زيادة على أنَّ سيبويه شبه الفتحة التي قالوا بالاجتزاء فيها بأنّها تشبه فتحة يا طلّح، يقول: "وحدّثنا يونس أنَّ بعض العرب يقول: يا أمّ لا تفعل، جعلوا هذه الهاء بمنزلة هاء طلّحة إذ قالوا: يا طلّح أقبل؛ لأنّهم رأوها متحركة بمنزلة هاء طلّحة فحذفوها، ولا يجوز ذلك في غير الأم من المضاف"⁽⁸⁶⁾. وهذا يعني أنَّ الفتحة في يا أب ويا أمّ هي من ملح الأصل الإعرابي بعد حذف ياء الإضافة، وانتفاء اشتغال المحل بحركة المناسبة، أو أنّها من أصل بناء اللفظ صرفياً إذا اعتبرنا الألف عوضاً من الياء ثمّ حذفت في قولنا: يا أباً ويا أمّاً. ويبدو أنَّ هذا النمط من الاجتزاء أي بالفتحة عن الألف محدود في اختيار الكلام وفي الشّعور أيضاً، فعندما استقصى سيبويه مواطن الحذف للحروف في الوقف وفي القوافي، قال: "وأما الألفات التي تذهب في الوصل فإنّها لا تحذف في الوقف؛ لأنّ الفتحة والألف أخفّ عليهما. ألا تراهم يفرون إلى الألف من الياء والواو إذا كانت العين قبل واحدة منهما مفتوحة، وفزوا إليها في قولهم: قد رضا، ونها. وقال الشاعر، زيد الخيل:

أفي كلّ عامٍ ماتمّ تبعثونه على محمّرٍ ثوبتموه وما رضا

وقال ظليل الغنموي:

إنّ الغويّ إذا نهّا لم يُعْتَبِ

ويقولون في فَخَذٍ: فَخَذٌ، وفي عَصِدٍ: عَصِدٌ، ولا يقولون في جَمَلٍ جَمَلٌ ولا يخفّفون؛ لأنّ الفتح أخفّ عليهم والألف، فمن ثمّ لم تحذف الألف، إلا أن يضطرّ شاعرٌ فيشبهها بالياء؛ لأنّها أخفّها، وهي قد تذهب مع التنوين⁽⁸⁷⁾.

والذي يدلّنا على محدوديّة الاجتزاء بالفتحة عن الألف أنّ العلماء الذين أطنبوا في ذكر مظاهر الحذف والاكتفاء بالحركة عنه في اللغة، وفي الضرائر الشعرية نصّوا على قلّة ذلك وندرته في باب الألف، يقول أبو حيّان: "الاجتزاء بالفتحة عن الألف أقلّ من الاجتزاء بالكسرة عن الياء، والضمّة عن الواو"⁽⁸⁸⁾، ويقول ابن عصفور بعد أن سرد طائفة أنماط الحذف في الحركة والحرف والكلمة: "وأما الألف الكائنة في آخر الكلمة فإنّ حذفها والاكتفاء بالفتحة منها قليل، ومنه قول رؤبة:

وَصَانِي الْعَجَاجُ فيما وصّني

يريد: فيما وصاني. وإنّما قال ذلك فيها لخفّتها"⁽⁸⁹⁾. وقال كذلك: "أما الألف الواقعة صلة لهاء ضمير المؤنث، فإنّ حذفها والاجتزاء بالفتحة عنها من قبيل الضرائر... وكذلك أيضاً حذفها في الوقف، وإلقاء حركة الضمير على ما قبلها من قبيل الضرائر... وربّما فعلوا ذلك في سعة الكلام: حكى الفراء: بالفضل ذو فضلکم الله به، والكرامة ذات أكرمکم الله به، يريد: بها، فحذفت الألف ونقلت حركة الهاء إلى الباء"⁽⁹⁰⁾.

إنّ الاجتزاء بالفتحة عن الألف مع قلّة شيوعه في اللغة لا نعدم أمثلة عليه سابقها العلماء نظائر للاحتجاج للقراءات القرآنية، ففي معظم المواضع القرآنية التي نصّ فيها العلماء على الاجتزاء بالفتحة؛ كان العلماء يسوقون مثلاً شعرياً للاستدلال على صحة التوجيه، ومن أمثلة ذلك ما ذكره السمين في قوله: "وقرأ محمد بن علي وعروة والزبير (ابنّة) هاء مفتوحة دون ألف، وهي كالقراءة قبلها، إلا أنّه حَذَفَ أَلْفَ «ها» مُجْتَزِئاً عنها بالفتحة، كما تُحذف الياء مُجْتَزِئاً عنها بالكسرة. قال ابن عطية: هي لغة، وأنشد

أَمَا تَقُودُ بِهَا شَاءً فَتَأْكُلُهَا أَوْ أَنْ تَبِيعَ فِي بَعْضِ الْأَرَاكِيبِ

يريد: تبيعها، فاجتزأ بالفتحة عن الألف، كما اجتزأ الآخر عنها في قوله: أنشده ابن الأعرابي على ذلك

فَلَسْتُ بِرَاجِعٍ مَا فَاتَ مِنِّي بَلْهَفَ وَلَا بَلَيْتَ وَلَا لَوَانِي

يريد : يا لَهْفَا، فحذف، وهذا يخصه بعضهم بالضرورة، ويمنع في السَّعة يا غلامَ في يا غلاما. قلت: وسيأتي في نحو: يا أبتَ، بالفتح: هل تَمَّ أَلْفٌ محذوفة أم لا؟ وتقدم لنا خلاف في نحو: يابنَ أُمَّ ويابنَ عَمٍّ: هل تَمَّ أَلْفٌ محذوفة مجتزأً عنها بالفتحة أم لا؟ فهذا أيضاً كذلك، ولكن الظاهر عدم اقتياسه. وقد خطأ النحاس أبا حاتم في حذف هذه الألف، وفيه نظر⁽⁹¹⁾.

ثمّة مواضع أخرى حملها العلماء على الاجتزاء بالفتحة عن الألف في بعض القراءات، نحو (الخالفين والخلفين)، وعبروا عنه بأنه مقصور من الخالفين⁽⁹²⁾، وهذا القصر وجه من أوجه الاجتزاء بالحركة عن الحرف، غير أنّ هذه المسألة عدت غير قياسية في اختيار الكلام وإن عززت باستعمالات للعرب، كما قال سيبويه في "باب ما يحذف من الأسماء من الياءات في الوقف التي لا تذهب في الوصل ولا يلحقها تنوين) وتركها في الوقف أقيس وأكثر: لأنها في هذه الحال، ولأنها ياءٌ لا يلحقها التنوين على كل حال فشبهوها بياء قاضي، لأنها ياءٌ بعد كسرة ساكنة في اسم، وذلك قولك: هذا غلام، وأنت تريد هذا غلامي، وقد أسقنا وأسقني، وأنت تريد أسقاني وأسقني؛ لأنّ ني اسمٌ، وقد قرأ أبو عمرو (فيقول ربي أكرمن) و (ربي أهانن) على الوقف وقال النابغة :

(إذا حاولتَ في أسدٍ فُجُوراً فإني لستُ منك ولستَ من)

يريد مني، وقال النابغة :

(وهم ورّدوا الجفّار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إنّ)

يريد (إنّي) سمعنا ذلك ممن يرويه عن العرب الموثوق بهم وترك الحذف أقيس⁽⁹³⁾

هذه هي أشهر مواطن الاجتزاء بالفتحة عن الألف في القراءات القرآنية، سقنا منها ما هو دليل على كيفية تناول العلماء لهذه المسألة وتوجيههم لها.

الخاتمة:

وبعد فإنّ الاجتزاء ظاهرة بارزة في العربيّة، لها مصطلحاتها ومفهومها ومظاهرها، وقد عبّر عنها العلماء بمصطلحات أخرى نحو الاكتفاء والاستغناء، ونرى أنّ الاجتزاء مصطلحاً

مفهومه هو الاكتفاء بالحركة عن الحرف، لأنّه اكتفاء بالقليل عن الكثير، فيتلاقى المعنيان اللغويّ مع الاصطلاحي، أمّا التعبير عنها بالاستغناء والاكتفاء والقصر فما هو إلّا مظهر من مظاهر عدم استقرار المصطلح، والتوسّع في استعمال المصطلح في ظواهر متعددة، وهذا واحد من ملامح التعامل مع المصطلحات في الدرس اللغويّ في المراحل المتقدمة من تطوّر الدرس اللغويّ.

لقد شاعت ظاهرة الاجتزاء في العربيّة شيوعاً مفرطاً ارتقى بها إلى مصاف الظواهر اللغويّة البارزة في العربيّة، وكان القرآن وقراءته، والشعر ميداناً لها، وإذا كان الشّعر مرهون بالعروض والقوافي ومنفتح على الضرورات، فإنّ القرآن مباح فيه الانحراف في الأداء الصوتي لغايات الفواصل القرآنيّة ورؤوس الآي، ولهذا ربط العلماء الاجتزاء في القرآن برؤوس الآي والفواصل القرآنيّة، غير أنّ الباحث في هذه المسألة يجد الاجتزاء شائعاً في القراءات دون أن يكون ذلك محكوماً بالفواصل القرآنيّة، والاجتزاء بالفتحة برز في القراءات الشاذة، وهي محدودة مقارنة مع الاجتزاء بالكسرة الذي بلغ مبلغ القياس والاطراد، لكثرتة.

لقد قصر بعض العلماء الاجتزاء على الضرورات، وخصوا الفواصل القرآنيّة به في غير الشّعر، وكان الملمح الأبرز أنّ الاجتزاء يشيع وبإفراط في باب الاجتزاء بالكسرة عن الياء، يلي ذلك الاجتزاء بالضمة عن الواو، وأقلّها الاجتزاء بالفتحة عن الألف، وحسبك تعليل أنّه مرتبط بمسألة الخفة والثقل في العربيّة فالياء والكسرة أثقل من الواو والضمة، وكلاهما أثقل من الفتحة والألف، وثمة مسألة تتصل بسبب في تفسير هذا التفاوت في الشيوخ، تتصل باللبس واحتمالات الإعراب، فالاجتزاء بالكسرة أقل لبساً من الاجتزاء بالضمة والفتحة، لأنّ الكسرة مناطها الجرّ وهو لا يدخل الأفعال؛ وبما أنّ الاسم ليس مسبوقاً بجرّ فيسهل بيان الاجتزاء فيه بالكسرة عندما يكون منتهياً بيا، أمّا الضمة والفتحة فمسألة مشتركة في الإعراب بين الأسماء والأفعال، والضمة قد تكون بلا عامل فيتداخل ما كان مرفوعاً مع ما فيه اجتزاء بالضمّ، والقول كذلك في الفتحة.

إنّ واحدة من أظهر المسائل المتعلقة بالاجتزاء تلك المتعلقة بالرسم القرآنيّ، والتفاوت بين الصورة المرسومة والنطق اللفظي، ففي قولنا: الداع، ويسر، وأمثالهما يطغى الجانب الصوتي في إبراز الياء الغائبة رسماً، بينما تتلاشى في الصورة الشكليّة، وأحسب أنّ قسماً من هذا مردّه إلى مسألة رسم المصاحف وما حذف فيها من أصوات، وهذه مسألة أشرت إليها في

ثنايا البحث، ولا ريب أنها ألفت بظلالها على الرسم، وبقي منها رواسب ماثلة في المصحف العثماني الذي نتداوله اليوم.

إنَّ الاجتزاء بالحركة عن الحرف، ومنه الاجتزاء بالفتحة عن الألف لا يخلو من دلالات قرآنية عظيمة ارتبطت بالمعنى، وكانت صحة المعنى ضابطاً أساسياً في قبول الاجتزاء أو رده، ونظر العلماء المحدثون إلى الاجتزاء على أنه مظهر من المظاهر البلاغية، وهذه مسألة وجدت أيضاً من الدراسات القرآنية التي تحدثت عن إعجاز الرسم القرآني، ودلالاته وبلاغته، سواء بالحذف أو الزيادة في الرسم، وهذا مما يفسر وجوهاً من مواطن الاجتزاء في القرآن الكريم. ولقد ساعد فهم المعنى والسياق على بروز هذه الظاهرة؛ لأنَّ فيها قدراً من التّخفيف .

لقد ارتبط الاجتزاء بالحركة عن الحرف في القراءات القرآنية بنظائر غزيرة من الشواهد الشعرية، وإنَّ كان الشعر محكوماً بضوابط العروض والقافية، وارتبط أيضاً بأمثلة قليلة من اختيار الكلام مرجعها اللهجات العربية في الغالب، وكان العلماء يذكرون الشواهد والأمثلة الشعرية ومظاهر الاجتزاء في كلام العرب للتدليل على أنَّ هذه الاجتزاء ظاهرة شائعة في الاستعمال، وأنها من سمات اللسان العربيّ وأدوات بيانه وبلاغته.

لقد انعكس الاجتزاء بالحركة عن الحرف على الإعراب وأسهم في تعدّد الأوجه الإعرابية، وظهر فيه تأويلات نحوية لا تخلو من التكلّف والتعقيد، وانعكس أيضاً على بعض حوانب المعنى والدلالة كما في (لاتصيّبن ولتصيّبن) وأضرابها، ولمسنا توجيهات للعلماء في هذه الآيات ؛ بعضها لا يؤيدها المقام الذي ذكرت فيه الآية الكريمة.

الهوامش

(1) سيبويه، عثمان بن قنبر (ت 180 هـ)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، ج1، ص 24-25.

(2) سيبويه، الكتاب ، ج1، ص 25.

- (3) الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت175هـ)، معجم العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، إيران، 1405هـ، ج6، ص 162-163 (جزأ).
- (4) ابن منظور، جمال الدين بن مكرم (ت711هـ) لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج2، ص45، (جزأ).
- (5) ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص46، (جزأ).
- (6) الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق، أبو الفيض، الملقب بمرتضى (ت817هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من تحقيقين، 1406هـ/1986م، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ج1، ص174 (جزأ).
- (7) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (المتوفى: نحو 395هـ) معجم الفروق اللغوية المؤلف، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم» الطبعة: الأولى، 1412هـ، ص 16.
- (8) أبو هلال العسكري، (ت395هـ)، الفروق اللغوية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4، 2006م، ص81.
- (9) الميداني، عبد الرحمن بن حسن حَبَّكَة (المتوفى: 1425هـ) البلاغة العربية، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1416 هـ - 1996 . ج 3، ص 46.
- (10) الميداني، البلاغة العربية، ج 3، ص 58-65.
- (11) ابن هشام، أبو محمد جمال الدين بن يوسف، (ت761هـ) مغني اللبيب عن كتب الأعريب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1411هـ/1991م، ج2، ص 715-750.
- (12) ابن جنّي، أبو الفتح عثمان (ت392هـ) الخصائص، تحقيق محمد علي النجا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990، ج2، ص294.
- (13) الفروناني، هاني، ظاهرة الاجتزاء في العربية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2005/ ص 25.
- (14) إبراهيم محمد عبدالله، الاجتزاء بالحرف عن الكلمة، مجلة جامعة دمشق، المجلد20، العدد 3+4، لسنة 2004، ص77-116.
- (15) سيبويه، الكتاب، ج1، ص 24-25.
- (16) سيبويه، الكتاب، ج 2، ص 391.
- (17) الطبري؛ أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، (المتوفى: 310هـ) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م. ج21، ص 576.
- (18) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم (المتوفى: 728 هـ) شرح العمدة في الفقه - كتاب الطهارة، تحقيق: د. سعود بن صالح العطيشان، مكتبة العبيكان - الرياض، الطبعة: الأولى، 1412هـ. ص 212. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (المتوفى: 303هـ) المجتبى من السنن

- = السنن الصغرى للنسائي ، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، 1406 - 1986، ج2، ص 9.
- (19) الخليل، العين، ج 8، ص 58 (دري).
- (20) الخليل، العين، ج 1، ص 55 (دري).
- (21) سيبويه، الكتاب، ج 2، ص 391 .
- (22) سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 272 . وانظر ج2، ص37، و ص 345،
- (23) سيبويه، الكتاب، ج 4، ص 185 .
- (24) سيبويه، الكتاب، ج 4، ص184- 185 .
- (25) الفراء؛ أبو زكريا يحيى بن زياد (المتوفى: 207هـ) معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف النجاشي ، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي ، الدار المصرية للتأليف والترجمة - مصر الطبعة الأولى ، ج3، ص330.
- (26) الفراء؛ معاني القرآن ، ج2، ص 90-91.
- (27) الأخفش الأوسط، أبو الحسن المجاشعي (المتوفى: 215هـ) معاني القرآن تحقيق: هدى محمود قراعة ، مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة الأولى، 1411 هـ - 1990 م، ج3، ص 416.
- (28) الأخفش الأوسط، معاني القرآن ، ج2، ص 77-78.
- (29) الأخفش الأوسط، معاني القرآن ، ج2، ص 28.
- (30) الفروناني، ظاهرة الاجتزاء في العربية، 2005، ص 8.
- (31) الزجاج؛ أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل، (المتوفى: 311هـ) معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى 1408 هـ - 1988 م، ج5، ص 300.
- (32) الزجاج؛ معاني القرآن وإعرابه، ج5، ص 373.
- (33) الزجاج؛ معاني القرآن وإعرابه، ج3، ص 125.
- (34) النَّحَّاس؛ أبو جعفر أحمد بن محمد (المتوفى: 338هـ) إعراب القرآن؛ وضع حواشيه وعلق عليه عبد المنعم خليل إبراهيم ، منشورات محمد علي ببيزون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ. ج4، ص193
- (35) السِّيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان (المتوفى: 368 هـ) شرح كتاب سيبويه، تحقيق أحمد حسن مهدي، وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 2008 م، ج 2، ص 84، 362، ج 3، ص 34، 146، ج4، ص 156.
- (36) السيرافي، شرح كتاب سيبويه، ج 6، ص 56-57.
- (37) الفارسي، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار ، (المتوفى: 377هـ) كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشككة الإعراب، تحقيق وشرح الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر الطبعة الأولى، 1408 هـ - 1988 م، ص 208.
- (38) الفروناني، ظاهرة الاجتزاء في العربية، ص 17.

- (39) القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب (المتوفى: 437هـ) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي ، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة. الطبعة الأولى، 1429 هـ - 2008. ج 5، ص 562
- (40) القيسي الهداية إلى بلوغ النهاية، ج 6، ص 399.
- (41) الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر، أبو عمرو (المتوفى: 444هـ) المقنع في رسم مصاحف الأمصار، تحقيق محمد الصادق قمحاوي ، مكتبة الكليات الأزهرية، ص 38، 42.
- (42) الأندلسي، أبو حيان (المتوفى: 745 هـ) التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق حسن هنداوي ، دار القلم - دمشق (من 1 إلى 5)، وباقي الأجزاء: دار كنوز أشبيلية، الطبعة: الأولى. ج2، ص 137-138.
- (43) أبو حيان الأندلسي ، التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، ج3، ص 25.
- (44) أبو حيان الأندلسي ، التذيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، ج10، ص 58.
- (45) أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط، ج2، ص 158، ج4، ص 694، ج6، ص 157، 158، 206، ج7، ص 546، ج8، ص 528، ج9، ص 60، 393.
- (46) السمين الحلبي ، الدر المصون، ج6، ص 228، ج7، ص 329، 331، 435، ج8، ص 121، ج9، ص 314، ج10، ص 92، 280، 459 .
- (47) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المؤلف، ج19، ص 303.
- (48) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ج24، ص 357.
- (49) الأستراباذي، محمد بن الحسن الرضي (المتوفى: 686هـ) شرح شافية ابن الحاجب مع شرح شواهد للعالم الجليل عبد القادر البغدادي صاحب خزائن الأدب المتوفى عام 1093 من الهجرة ، حققهما، وضبط غريبهما، وشرح مبهمهما: محمد نور الحسن ، محمد الزقراق ، محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، 1395 هـ - 1975 م ، ج 3، ص 315.
- (50) الداني، المقنع في رسم مصاحف الأمصار. ص 87-88.
- (51) الداني، المقنع في رسم مصاحف الأمصار. ص 20.
- (52) الداني، المقنع في رسم مصاحف الأمصار. ص 29-31.
- (53) الداني، المقنع في رسم مصاحف الأمصار. ص 90-100.
- (54) السمين، الدر المصون، ج 2، ص 49.
- (55) السمين، الدر المصون، ج10، ص 50.
- (56) الميداني ، كتاب البلاغة العربية ، ج1، ص 331.
- (57) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني المؤلف ، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1996، ص 154.

- (58) الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (المتوفى: 745 هـ) ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق وشرح ودراسة رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب الناشر، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة الأولى، 1418 هـ - 1998 م ج5، ص2408.
- (59) الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف (المتوفى: 745 هـ) البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، 1420 هـ، ج6، ص157.
- (60) ابن جني، أبو الفتح عثمان (المتوفى: 392 هـ) المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1420 هـ-1999 م. ج1، ص322.
- (61) السمين الحلبي؛ أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف (المتوفى: 756 هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج7، ص329.
- (62) الهرري، محمد الأمين بن عبد الله تفسیر، حقائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م، ج14، ص97.
- (63) الأندلسي، أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، ج9، ص393.
- (64) السمين الحلبي؛ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج10، ص613.
- (65) الأخفش الأوسط؛ معاني القرآن، ج2، ص80.
- (66) الأخفش الأوسط؛ معاني القرآن، ج2، ص338.
- (67) الهرري، حقائق الروح، ج11، ص152.
- (68) الهرري، حقائق الروح، ج23، ص241.
- (69) أبو حيان الأندلسي؛ البحر المحيط، ج5، ص182.
- (70) أبو حيان الأندلسي؛ البحر المحيط، ج5، ص183.
- (71) سيبويه، الكتاب، ج2، ص214.
- (72) سيبويه، الكتاب، ج2، ص213.
- (73) سيبويه، الكتاب، ج2، ص210.
- (74) سيبويه، الكتاب، ج2، ص210-211.
- (75) الأشموني، علي بن محمد، أبو الحسن، نور الدين (المتوفى: 900 هـ) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1419 هـ-1998 م، ج2، ص41.
- (76) أبو حيان، البحر المحيط، ج8، ص413.
- (77) السمين، الدر المصون، ج7، ص330.
- (78) السمين، الدر المصون، ج7، ص331.
- (79) ابن جني، المحتسب، ج1، ص277.
- (80) الفرناوي، ظاهرة الاجتزاء، ص78.
- (81) أبو حيان، البحر المحيط، ج9، ص60-61.

- (82) ابن جنّي، المحتسب، ج2، ص 208-212.
- (83) السمين، الدر المصون، ج10، ص 260.
- (84) أبو حيان، البحر المحيط، ج6، ص 236-237.
- (85) السمين، الدر المصون، ج 7، ص 235-236.
- (86) سيبويه، الكتاب، ج2، ص213.
- (87) سيبويه، الكتاب، ج4، ص 188-189.
- (88) الأندلسي، ارتشاف الضرب من لسان العرب، ج5، ص2408.
- (89) ابن عصفور الأشبيلي، علي بن مؤمن بن محمد، (المتوفى: 669هـ) ضرائر الشعر، تحقيق السيد إبراهيم محمد، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1980 م، ص 122.
- (90) ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص 125.
- (91) السمين الحلبي، الدر المصون، ج7، ص 329-330.
- (92) ابن جنّي، المحتسب، ج1، ص 298. والسمين الحلبي، الدر المصون، ج7، ص93. أبو حيان، البحر المحيط، ج 5، ص477.
- (93) سيبويه، الكتاب، ج4، ص 185.